سلسلة المعارف الإسلامية

(٢٩)

# الإمام علي بن الحسين (عليه السلام)

دراسة تحليلية..

تحظى إصدارات المركز

بالمتابعة والتقويم والإشراف العلمي

بسم الله الرحمن الرحيم

**بسم الله الرحمن الرحيم**

## مقدِّمة المركز

الحمدُ لله ربِّ العالمين ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين

وبعد .. في رحاب النبي العظيم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الطاهرين عليهم السلام نعيش أروع معالم الكمال البشري ، وأسمى آيات العظمة الإنسانية ، ونتابع سلسلة من المواقف التي تحمل في ذاتها كل مبررات البقاء والخلود ، معالم طريق ، ومنارات هدى ، وبيّنات مجد لا يضاهى .. ذلك إذا ما وقفنا عند تلك المعالم وهذه المنارات والبينات كما ينبغي ، مرسلين النظر في أطرافها ، باعثين سفراء العقول والضمائر بين ثناياها وفي أعماقها .. وقفة الدارس المتأمل ، والناظر المستلهم ، وهذا عين ما أردناه من هذه السلسلة الخاصة في دراسة سير المعصومين عليهم السلام .. ولعل أول ما نلمحه من نظرة كلية الى سيرهم الغنية بالعطاء هو ان كل واحد منهم عليهم السلام قد تميّز بواحدةٍ من الخصال أو أكثر ، صبغت أيامه ، وربّما تراثه أيضاً بصبغتها المميزة ، مع ما نلاحظه من خطوط التلاقي الوفيرة ، والتكامل التاريخي المتجسّد في سيرة واحدة تمتد قرنين ونصف القرن ، منذ فجر الرسالة وحتى غياب المعصوم الرابع عشر.

فإذا كان لون الشهادة هو الغالب على سيرة الحسين عليه السلام .. ونهضة الدين العارمة المتنقلة بين السجون مع موسى الكاظم عليه السلام .. وظاهرة الإمامة المبكرة مع الجواد والهادي والمهدي عليهم السلام ، فثمة حلقات تاريخية شاخصة المعالم تجمع سير العظماء الخمسة مع من سبقهم ، ومن هو بينهم من هداة البشر عليهم السلام .

وفي حياة خامس الأئمة ، زين العابدين عليه السلام ، سنرى ظاهرة جديدة ، ربّما في تاريخ عظماء البشر على الإطلاق ، ظاهرة السبك الحكمي الدقيق لكل مبادىء الإسلام من أركان وتعاليم ، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومفاتح التغيير الإجتماعي ، ومفاتح الثورة على الظالمين ، ومبادىء حقوق الإنسان ، سبكها كلها في لغة الدعاء والابتهال المقروء والمحمول ، بعد أن كانت من أخطر الممنوعات

في عصره لو اتخذت لونها المباشر.

ومع هذا التمييز الواضح والكبير فإن ظاهرة التواصل والامتداد في المسؤوليات والمهمات بينه وبين آبائه الطاهرين ، انتهاءً بسيد الكائنات محمد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم هي المحور الثابت في حياته وسيرته عليه السلام .

وكم هو مناسب أن نلمح بعض وجوه الشبه بين ظروف حياته الخاصة وبين بعض خصائص جده أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام ؛ فقد عاش عليٌّ عليه السلام ما يزيد بقليل على ربع القرن في كنف المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وصحبته ، وأقل بقليل من هذا عاش عليٌّ الثاني زين العابدين مع عمّه الحسن وأبيه الحسين سبطي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .. وابتدأ عليٌّ الأ َل محنته بغياب حبيبه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ، وابتدأ عليٌّ الثاني محنته بغياب أبيه سيد الشهداء سبط المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم .. وعاش عليٌّ الأ َل جلالة الصبر وذروة حكمة العظماء وهو يرى من هم دونه يتناوبون الخلافة ، ومثل هذا عاشه عليٌّ الثاني منذ رحيل والده الشهيد .. وترك عليٌّ الأ َل أعظم دروس الحكمة والمقاطع الشاهدة على التاريخ في أروع بيان ، جُمع بعضه في « نهج البلاغة » ، كما ترك عليٌّ الثاني حكمته ودروسه الشاهدة على التاريخ في صحيفته السجادية المنسوجة في أروع بيان.

وفي هذا كله ، وبينه ، مشاهد حيّة ، وعطاءات خالدة ، ومواقف فذّة ، حرية بجهد جاد في الدراسة والتحليل.

ولقد وقف إصدرانا هذا وقفة موفقة مع كثير من تلك الحلقات والمشاهد ، في دراسة جادّة نرجو أنّها قد قدمت ما هو جديد ومفيد في التعرف على سيرة هذا الرجل العظيم ..

والله من وراء القصد .. وهو الهادي الى سواء السبيل.

**مركز الرسالة**

## المقدِّمة

دأب معظم الكتّاب والباحثين الذين كتبوا عن سيرة أئمة أهل البيت عليهم السلام على عدم تجاوز النسق التقليدي في العرض التأريخي لحياة كل واحد منهم ، والذي يستهل عادة بذكر يوم ولادته وأسمائه وكناه ومناقبه ومعاجزه وكراماته ونحوها ، انتهاءً بوفاته ... وقليل منهم من يدون مقاطع وأحداثاً أكثر إثارة في حياتهم الاجتماعية والسياسية.

هذا مع عموم أئمة أهل البيت عليهم السلام أما حين نأتي على دراسة حياة الإمام السجاد زين العابدين عليه السلام فسنرى الرزيّة أعظم والكارثة أدهى وأمر ؛ إذ إن هذا الإمام .كما هو معروف . عاش أقسى وأشد ما يعانيه إنسان معارض وهو يرى بأمِّ عينيه مشاهد وفصول واقعة كربلاء الرهيبة ويبقى يحمل ذكرياتها في ضميره ووجدانه ، الأمر الذي دفع السلطات إلى أن تحصي عليه أنفاسه وتراقب حركاته وسكناته ، وفي مقطع زمني بغيض أقلّ ما قيل فيه إنّ الناس بعد مصرع والده الإمام الحسين عليه السلام « ارتدوا جميعا إلا ثلاثة » [1].

وذلك تعبير عن هول الصدمة التي عصفت بمشاعر الأُمّة وهي ترى ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسيد شباب أهل الجنة مع أصحابه وبنيه مجزّرين كالأضاحي في رمضاء كربلاء ، لا يسلم منهم أحد إلاّ رجل واحد مريض ، اختزنته المشيئة الإلهية ليبقى شاهداً على العصر وحجّة على

---

(١) عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال : « ارتد الناس بعد قتل الحسين عليه السلام إلاّ ثلاثة ، وهم أبو خالد الكابلي ، ويحيى ابن أم الطويل ، وجبير بن مطعم ، ثم قال : ثم إن الناس لحقوا وكثروا » ، راجع : رجال الكشي ، ترجمة ابن أم الطويل.

العباد لاستكمال فصول « الابتلاء » ؛ بل الغضب الالهي الذي عم أهل الدنيا بعد تلك الواقعة السوداء التي لطخت وجه التاريخ.

نقول ، إنّ « التاريخ الأسود » الذي كتبته السلطة الأموية الحاكمة ، لم يبق للمؤرخين من سيرة هذا الإمام العظيم إلاّ النزر القليل ، فضلاً عن التحريف المتعمد لتشويه صورته والتعتيم على مواقفه وسيرته ووفق الطريقة التي تخدم السلطة الحاكمة ، وتبرّر للحكام عزلته أو اعتزاله ، بل تفسّر ذلك وتبرره على أنّه الموقف السليم من الحكم ، الأمر الذي سار عليه الكتّاب والمؤرخون في تفسيرهم الظاهري لاعتزاله ، بل عزله وإقصائه [1].

ولكن ، ومع كل هذا التغييب المتعمّد أو هذا التعسف الظالم بحق الإمام السجاد عليه السلام ، إلاّ أن مواقفه وكلماته وسيرته تحدّت حجب الزمن وركام التاريخ وغبار المدوّنات الظالمة ، وتركت لنا منه سفرا خالدا يجدر بالكتّاب والباحثين المعاصرين أن يقرأوه أو يدرسوه قراءة متأنية أُخرى ، أو دراسة تحليلية جديدة تتناسب مع موقعه باعتباره الرمز الأوّل في معارضة سلبية قُتل كافة رجالها في معركة غير متكافئة ، أقعده المرض عن خوضها وبقي يُقاتل وحده ، بطريقةٍ أقلّ ما يقال فيها أنّها كانت أقسى من ساعة مواجهة كان يمكن أن يستشهد فيها مع اخوته وأبيه وأصحاب أبيه ويتخلص من أيام ضيم وسنيّ ألم وعقود حصار ، وملاحقة مرّة جعلت منه رمزاً منغّصاً ، وهاجساً مرعباً لسلطة الباطل ، ووجهاً لوجه أمام قوم غلاظ نزع الله من قلوبهم الرحمة ، فراحوا يعدّون عليه أنفاسه ويلجأون إلى شتى الوسائل لإنهائه والاجهاز عليه وإلحاقه بمن سبقه من سلالة هذا البيت الطاهر الكريم ...

---

(١) راجع : نظرية الإمامة / صبحي الصالح : ٣٤٩ ، وحياة الإمام علي بن الحسين عليه السلام : ٣٢٠ ، وثورة زيد / ناجي حسن : ٣٠ ـ ٣١ ، والفكر الشيعي والنزاعات الصوفية / الشيبي : ١٧. والصلة بين التصوف والتشيع : ١٠٤ و ١٠٧.

إذن ، من هذا المنطلق سنحاول في بحثنا هذا أن نقترب من هذا الإمام العظيم باعتباره حركة في الواقع وتجسيداً للمثال ، وقدوة حسنة ، ونموذجاً حركياً عاش على الأَرض وتحرك مع الناس وأنزل المفاهيم السماوية مصاديق متحركة تمشي على أقدامها في الأَسواق ومع الفقراء والعبيد وعوامّ الناس ، لتؤكد للجميع أنّ الإمام شعار وشعور ، مفاهيم ومصاديق ، أقوال وأفعال ، موعظة وسلوك ، توجيه وممارسة ، يواسي الفقير ، وينتصر للمظلوم ، ويصفح عن المسيء ، يعدل بين المتخاصمين ، ويدعو على الظالمين ، ويدعو للمظلومين ، يبكي نبلاً ، ويتهجّد صدقاً ، وينشج حزناً ، ويقرأ القرآن اعتقاداً وتصديقاً ، ويرتّله إيماناً ويقيناً ، ويعمل به أخلاقاً وسلوكاً ، فلسفة وعرفاناً ، نظرية وتطبيقاً ...

ولعل ما أردنا إثباته بل تأكيده في هذه الدراسة التحليلية الموجزة للإمام السجاد عليه السلام هو هذا وليس أكثر ، مؤكدين أيضاً أن الخلود ليس من نصيب الحاكم صاحب السلطة والصولجان مهما تماهى مع ذاته في كتابة تأريخه وأغدق على شعرائه وكتّاب دواوينه ، وإنّما المجد والخلود يكون عادةً من نصيب المعارض الصادق ، وإن كان ملاحقاً أو سجيناً أو شهيدا ولو بعد حين.

وحين نقول إن عظمة ( البيان ) جاءت في القرآن الكريم بعد عظمة ( خلق الإنسان ) .. ( الرحمن * خلق الإنسان * علّمه البيان ) ، فإنّ بيان الإمام السجاد عليه السلام كان بيانا ما بعده بيان ، وامتداداً لبيان جدّه أمير المؤمنين عليه السلام الذي عُد دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق ، فضلاً عن كونه إنساناً لا كالناس ، بل لم يترك له الناس في زمانه دوراً إلاّ أن يكون محوراً لتذكيرهم بربهم ، يكبح تهالكهم على الدنيا وتهافتهم عليها حين يرونه قد اصفر وجهه [1] عند وضوئه وقبل الوقوف بين يدي ربه ... وكفاه

---

(١) الصواق المحرقة : ٣٠٢.

فخراً وعزاً أنّه كان أول الذين صبروا وصمدوا وواجهوا ورابطوا ، وكان عنواناً عريضاً للمعارض الذي لا يستكين ، والباكي الذي فجّر بالدموع دماً ، والداعي الذي فتّت بدعائه الجلمود رقّة وعطفاً ، والناهض الذي يُرعب الأعداء بصمته وهيبته وسكوته ، ورفيق العبيد الذي يحصي عليه خصومه كلماته مع عبيده ، ويحصون عليه أنفاسه ، وطلعاته الليلية التي يحمل فيها جرابه ليطرق أبواب المحتاجين ويعطيهم مما أعطاه الله سرّ ...

هذا هو زين العابدين الذي سنقرأه دراسة وتأمّلاً وتحليلاً ، وليس سرداً استعراضياً أو حكاية أو معجزة أو قصة ، أو سيرة تاريخية ، مع كامل اعتزازنا بمن قرأه هكذا من المؤلفين والمؤرخين والكتّاب ، فلكل كاتبٍ قارىء ، ولكلٍّ زهرة نكهة ...

وقد تمت هذه الدارسة في ستة فصول :

الأ َل تناول . تحت عنوان ( الإمام السجاد عليه السلام في سطور ) ـ المحطات الاساسية في حياته الشريفة والتأشير صوب الأ َوار الرئيسية التي جسّدها في حياته.

وتناول الفصل الثاني ظاهرة البكاء عند الإمام السجاد عليه السلام بالدراسة والتحليل.

واختص الفصل الثالث بدراسة ظاهرتي العبادة والدعاء عنده عليه السلام .

وتركز الفصل الرابع حول فلسفة الإمام عليه السلام في الانفاق وتحرير العبيد.

ولوقفة متأنية في ( رسالة الحقوق ) أفردنا الفصل الخامس.

أمّا الختام فكان في خلاصة الجهاد السياسي للإمام السجاد عليه السلام ، وهو موضوع الفصل السادس والأخير.

والله تعالى من وراء القصد ، عليه توكّلنا ، وإليه أنبنا ، إنّه نعم المولى ونعم النصير ...

# الفصل الأول

## الإمام السجاد عليه السلام في سطور

### الشخصية :

ولد الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام في السنة الثامنة والثلاثين للهجرة النبوية الشريفة في شهر شعبان ، واختلف المؤرخون في يوم ولادته ومكانها ، فبعضهم قال : إنّه ولد في الكوفة [١] ، فيما قال آخرون إن ولادته كانت في يثرب [٢].

وقد عُرف بين المؤرخين والمحدّثين بابن الخيرتين ؛ لأن أباه هو الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام ، وأمّه من بنات ملك الفرس كسرى ، أُسرت في إحدى الحروب وعُرض عليها الزواج فاختارت الإمام الحسين عليه السلام فتزوجها تكريما لها.

وجاء في ( ربيع الأبرار ) للزمخشري : أن لله في عباده خيرتان : فخيرته من العرب بنو هاشم ، وخيرته من العجم فارس [٣] ، وفي ذلك قال أبو الأسود الدؤلي :

وإن وليدا بين كسرى وهاشم ... لأكرم من نيطت عليه التمائم

---

(١) شذرات الذهب ١ : ١٠٤.

(٢) الفصول المهمة / ابن الصباغ المالكي : ١٨٧.

(٣) ربيع الأبرار ١ : ٣٣٤ / ٧٣.

استمرت إمامته أربعةً وثلاثين سنة ، عاصر فيها مُلك يزيد بن معاوية ، ومروان بن الحكم ، وعبدالملك بن مروان ، وتوفي مسموماً . حسب أكثر الروايات التاريخية . في عهد الوليد بن عبدالملك بن مروان [1] ، وذلك في النصف الأول من شهر محرم الحرام سنة خمس وتسعين للهجرة ، وقيل قبل ذلك أو بعده بقليل ...

عاش حوالي سبعاً وخمسين عاماً ، قضى بضع سنين منها في كنف جدّه علي بن أبي طالب عليه السلام ثم نشأ في مدرسة عمّه الحسن وأبيه الحسين عليهما السلام سبطي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، واستقى علومه من هذه المصادر الطاهرة.

برز على الصعيد العلمي والديني ، إماماً في الدين ومناراً في العلم ، ومرجعاً ومثلاً أعلى في الورع والعبادة والتقوى حتى سلّم المسلمون جميعا في عصره بأنّه أفقه أهل زمانه وأورعهم وأتقاهم ... فقال الزهري ، وهو من معاصريه : « ما رأيت قرشيا أفضل منه » ، وقال سعيد بن المسيّب وهو من معاصريه أيضا : « ما رأيت قط أفضل من علي بن الحسين » ، وقال الإمام مالك : « سمي زين العابدين لكثرة عبادته » ، وقال سفيان بن عيينة « ما رأيت هاشميا أفضل من زين العابدين ولا أفقه منه » ، وعدّه الشافعي أنّه : « أفقه أهل المدينة ».

وقد اعترف بهذه الحقيقة حكام عصره من بني أمية أنفسهم ، رغم ما بينه وبينهم من عداوة وخصومة ، فقال له عبدالملك بن مروان يوماً : « لقد أوتيت من العلم والدين والورع ما لم يؤته أحد مثلك قبلك إلا من مضى

---

(١) الاتحاف بحب الأشراف / عبدالله الشبراوي الشافعي : ١٤٣ ، دار الذخائر للمطبوعات.

من سلفك .. » ، ووصفه عمر بن عبدالعزيز بأنّه : « سراج الدنيا وجمال الإِسلام » [1].

وحين اصطدم عبدالملك بن مروان بملك الروم وتماحكا حول مسألة النقود ، لم يجد الأول مفزعا ومُعينا إلا الإمام زين العابدين عليه السلام ، فهرع إليه يستعينه على إنقاذ المسلمين من ورطتهم ، فوضع له الإمام أُطروحة متكاملة للنقد الإِسلامي [2] ، وأنقذ المسلمين من إذلال الروم ، ولعلّ آثار هذه الأُطروحة والعمل بالنقد ما زالت لحدّ اليوم.

**من أشهر ألقابه :** زين العابدين ، والسجاد ، وذو الثفنات ، والبكّاء ، والعابد ، وأشهرها الأول ...

جاء في المرويات عن محمد بن شهاب الزهري أنّه كان يقول : « يقوم يوم القيامة مناد ينادي : ليقم سيد العابدين في زمانه ، فيقوم علي ابن الحسين ».

وجاء في ( تذكرة الخواص ) لابن الجوزي ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي سماه بهذا الاسم [3] ، وكذلك حسب الروايات الشيعية في تسمية النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأئمة أهل البيت الاثني عشر المعروفين عليهم السلام.

وجاء في تسميته بذي الثفنات ، أنّ الإمام الباقر عليه السلام قال : « **كان لابي في موضع سجوده آثار ثابتة وكان يقطعها في كلّ سنة من طول سجوده وكثرته ...** » [4].

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٣٠٣ . ٣٠٥.

(٢) المصدر السابق : ٨.

(٣) تذكرة الخواص : ٢٩١.

(٤) المناقب ٤ : ١٨٠ . ١٨١.

**ويروي الرواة عن سبب تسميته ( البكّاء ) عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال : « بكى جدي علي بن الحسين عليه السلام على أبيه عشرين سنة ، ما وضع خلالها بين يديه طعام أو ماء إلاّ بكى ، فقال له أحد مواليه يوماً : جُعلت فداك يا ابن رسول الله ، إنّي أخاف أن تكون من الهالكين ، فقال : إنّما أشكو بثّي وحزني إلى الله ، وأعلم ما لا تعلمون ....**

**وقال له مولى آخر في يوم آخر : « أما آن لحزنك أن ينقضي ولبكائك أن يقلّ فقال عليه السلام :** ويحك ، إنّ يعقوب النبي كان له اثنا عشر ولداً ، فغيّب الله واحداً منهم ، فابيضت عيناه عليه من كثرة البكاء واحدودب ظهره ... وأنا نظرت إلى أبي وإخوتي وعمومتي وسبعة عشر شابا من بني عمومتي مجزرين أمامي كالاضاحي .. ونظرت إلى عمّاتي وأخواتي هائمات في البراري وقد أحاط بهنّ أهل الكوفة وهنّ يستغثن ويندبن قتلاهن ... ».

وجاء عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام أيضا أنّه قال : « **البكاؤون خمسة آدم ويعقوب ، ويوسف ، وفاطمة بنت محمد ، وعلي بن الحسين** ».

وتحدّث المؤرخون عن بكائه عليه السلام الكثير الكثير ، حتى قيل أنّه ما رأى جزاراً يذبح شاة حتى يدنو منه ويسأله هل سقاها ماءً وحين يقال له نعم ، يبكي ويقول : « **لقد ذُبح أبو عبدالله عطشانا** ».

وما يجيئه ضيفٌ ويسأله عن ميّت له ، هل غسّله وكفّنه؟ ويكون الجواب ، نعم هذا واجب يا ابن رسول الله ، حتى يبكي ويقول : « **لقد قُتل والدي غريبا وبقي ثلاثة أيام تصهره الشمس بلا غُسل ولا كفن ...** ».

وهكذا حتى كاد يفجّر ببكائه وأسئلته وتعليقاته تلك ، كل معاني الغضب المقدّس في نفوس الأحرار والثوار ويستنهضهم بشكل مباشر أو غير مباشر للثورة على الظلم والظالمين ، والتمرّد على أعداء الدين الذين

يستبيحون الحرمات ، ويهتكون المقدّسات ، ويستهترون بالقيم والمبادىء والحدود ...

نعم ، لقد هزّ الإمام السجاد بتلك الدموع عروش الأمويين وزلزل حكمهم ، ونغّص عليهم دنياهم التي باعوها بدينهم وآخرتهم ، والتي لم يحفظوا فيها لأهل بيت النبي حرمة ، ولا رعوا لهم فيها إلا ولا ذمة ... فكان الذي كان وصار الذي سنقرأ بعض تفاصيله في الصفحات القليلة التالية ...

## المحطات الرئيسية في حياة الإمام السجاد عليه السلام :

في قراءة سريعة لسيرة الإمام السجاد عليه السلام لا يسع القارئ إلا أن يتوقف أمام البداية والمرتكز اللذين وسما شخصيته عليه السلام وجعلاه يُسجّل أسطع صفحات النضال في مسيرته المستقبلية اللاحقة ...

ويمكن اعتبار حضوره في كربلاء ومواقفه في الشام ، وتخطيطه في المدينة بعد عودته إليها هي المحطات الثلاثة التي تؤشر الأبعاد الحقيقية التي بلورت شخصيته الجهادية في قابل الأيام والسنين ، فضلاً عن محطته الرئيسية في بيت العصمة والطهارة الذي نشأ وعاش وترعرع فيه وخاصة مع جدّه الإمام علي وأبيه الحسين وعمّيه الحسن والعباس عليهم السلام .

وعند التأمل في هذه المحطات الثلاث ، نكتشف أنّ جهاد الإمام السجّاد عليه السلام ودوره في تأصيل القيم التي من أجلها استشهد جده وأبوه وعمّاه ، لم تكن لتُرسم بقعقعة السيوف وصليلها فقط ، وإنّما بكشف الحقائق التي تم تزويرها أو التعتيم عليها بعد مصرع أبيه وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ، وتوقّف صهيل خيولها وهجع ضجيج عساكرها وصخب مقاتليها ...

## المحطة الأُولى : في كربلاء :

تؤكد المصادر التاريخية أن الإمام السجاد عليه السلام كان حاضرا في كربلاء إذ شهد واقعة الطفّ بجزئياتها وتفاصيلها وجميع مشاهدها المروّعة ، وكان شاهداً عليها ومؤرخاً لها ، ولعلّه يُعتبر أصدق وأهم مراجعها على الإطلاق ..

ولقد ورد في بعض النصوص التأريخية المعتبرة عن أهل البيت عليهم السلام في ذكر أسماء من حضر مع الإمام الحسين عليه السلام ، أنّ الإمام السجاد عليه السلام قد قاتل في ذلك اليوم وقد جُرح ..

وكان ممّا ورد في هذا السياق ما نصه : « وكان علي بن الحسين عليلاً ، وارتُثَّ يومئذٍ ، وقد حضر بعض القتال ، فدفع الله عنه وأُخِذ مع النساء » [1].

ومع وضوح هذا النص ، فإنّ كلمة ( ارتُثَّ ) هذه تدلُّ على اشتراكه في القتال ، لأنّها تُقال لمن حُمل من المعركة بعد أن قاتل وأُثخن بالجراح ، فأُخرج من أرضها وبه رمق ، كما يقول اللغويون ، أو أصحاب فقه اللغة [2].

إلاّ أن المؤكد في معظم المصادر التاريخية ، أو المتفق عليه فيها أنه كان يوم كربلاء مريضاً أو موعوكا [3] وللحد الذي لا يستطيع الوقوف على

---

(١) جهاد الإمام السجاد / محمد رضا الحسيني الجلالي : ٥١ عن كتاب « تسمية من قتل مع الحسين عليه السلام من أهل بيته وأخوته وشيعته » الذي جمعه المحدّث الزيدي الفضيل بن الزبير ، الأسدي ، الرسّان ، الكوفي من أصحاب الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام ، والكتاب مذكور في الأمالي الخميسية للمرشد بالله ١ : ١٧٠ . ١٧٣. والحدائق الوردية / المهلبي ١ : ١٢٠.

(٢) لاحظ كلمة ( رثث ) في كتب اللغة. أُنظر المغرب للمطرزي ١ : ١٨٤. والقاموس ١ : ١٦٧. ولسان العرب ٤ : ٤٥٧.

(٣) الارشاد / المفيد : ٢٣١. وشرح الأخبار ٣ : ٢٥٠. وسير أعلام النبلاء ٤ : ٤٨٦. وأشار ابن

قدميه ، أو لا تحمله قدماه ، كما تقول الروايات.

فقد جاء في تاريخ اليعقوبي ـ المجلد الثاني ، ما نصه : ( روي عن علي ابن الحسين عليه السلام أنّه قال : « **إنّي لجالسٌ في العشية التي قُتل فيها أبي الحسين بن علي ، في صبيحتها وعمّتي زينب تمرّضني ، إذ دخل أبي وهو يقول :**

يا دهر أفٍّ لك من خليل — كم لك في الإشراق والأصيل
من طالب وصاحب قتيل — والدهر لا يقنع بالبديل
وإنّما الأمر إلى الجليل — وكل حيٍّ سالك السبيل

**ففهمتُ ما قال وعرفتُ ما أراد ، وخنقتني عبرتي ، ورددتُ دمعتي ، وعرفتُ أنّ البلاء قد نزل بنا. فأمّا عمّتي زينب فإنّها لمّا سمعت ما سمعت ، والنساء من شأنهنّ الرقّة والجزع ، لم تملك أن وثبت تجر ثوبها حاسرة وهي تقول : واثكلاه ، ليت الموت أعدمني الحياة ... ، فقال لها الحسين : يا أختي اتّقي الله ، فإنّ الموت نازل لا محالة ، فلطمت وجهها وشقّت جيبها وخرّت مغشياً عليها ، وصاحت واويلاه واثكلاه ، فتقدّم إليها وصبّ على وجهها الماء وقال : يا أختاه : تعزّي بعزاء الله ، فإنّ لي ولكلّ مسلم ومسلمة أُسوة برسول الله ... ثم قال : إنّي أُقسم عليك ، فأبرّي قسمي ، لا تشقّي عليَّ جيباً ، ولا تخمشي عليَّ وجهاً ، ولا تدعي عليَّ بالويل والثبور. ثم جاء حتى**

---

سعد في تاريخه أيضا قائلا : كان علي بن الحسين مع أبيه بطف كربلاء وعمره إذ ذاك ثلاث وعشرون سنة ، لكنه كان مريضاً ملقى على فراشه ، قد نهكته العلّة والمرض. ولما قتل والده ، قال الشمر بن ذي الجوشن : اقتلوا هذا الغلام فقال بعض اصحابه : سبحان الله ، تقتلون فتىً مريضاً لم يُقاتل فتركوه ... » ، راجع كتاب الاتحاف بحب الأشراف / الشيخ عبدالله بن محمد بن عامر الشبراوي الشافعي : ١٤٣ دار الذخائر للمطبوعات.

**أجلسها عندي ، فإنّي لمريض مدنف ، وخرج إلى أصحابه ... »** [1].

ثم راح عليه السلام يشرح قصّة مصرع والده عليه السلام وأصحابه وبنيه وأهل بيته .. ويؤرّخ مواقفهم وملاحمهم البطولية الخالدة بأصدق ما يكون المؤرخ ، وأدقّ ما يسجل التاريخ ...

إذن ، كان الإمام الحسين برحلته من الحجاز إلى العراق ، وكلماته كلّها ، ومصرعه الدامي ومشاهد البطولة والفداء ، كلّها مخزونة في وجدان وضمير الإمام السجاد وهو يسمعه يقول يوما : « **كأني بأوصالي هذه تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء** » ، ويسمعه يقول في يوم آخر : « **من رأى منكم سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله ولم يغيّر عليه بقول أو فعل كان حقا على الله أن يدخله مدخله** » ، ويسمعه يقول في يوم ثالث ورابع : « **والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أقرُّ لكم إقرار العبيد** » « **إنّي لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برما** » « **الموت أولى من ركوب العار ، والعار أولى من دخول النار** » فيما يسمع إخوته وأبناء عمومته وأصحاب أبيه ينشدون في حومة الوغى ويهتفون :

* إذا لم يكن من الموت بدٌّ ... فمن العار أن تموت جبانا
* أنا علي بن الحسين بن علي ... نحن وأيم الله أولى بالنبي
أطعنكم بالرمح حتى ينثني ... أضربكم بالسيف أحمي عن أبي
ضرب غلام علوي هاشمي ... والله لا يحكم فينا ابن الدعي
* سأمضي وما بالموت عار على الفتى ... إذا ما نوى خيرا وجاهد مسلما

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٤٣ . ٢٤٤ ، دار صادر . بيروت.

وواســـى الرجـــال الصـــالحين بنفســـه وفـــارق مثبـــورا وخـــالف مجرمـــا
فـــإن عشـــت لم أنـــدم وإن مـــتُّ لم أُلم كفـــى بـــك ذلاً أن تعـــيش وتُرغمـــا

كلّ ذلك وغيره كثير يختزنه الإمام السجاد ويطوي عليه قلبه وضلوعه ، إذ لم يتسنَّ له أن يبذل مهجته ، لجرحٍ أصابه ، فأخرجه من المعركة ، أو مرضٍ شديد أقعده عن المساهمة فيها ، فيحمل تلك المشاهد والكلمات ليصبح بعد ذلك ناطقاً رسمياً بما شاهده واطّلع عليه ، ويكون المرجع الرئيس المنتدب لإتمام المهمة التي استشهد من أجلها أبوه الإمام الحسين عليه السلام ، والتي لم تنته باستشهاده ، بل إنّها بدأت بعد ذلك مباشرة فعلاً.

وحين نقول ذلك ونؤكد أن مصرع الإمام الحسين عليه السلام هو الحدث التاريخي الأكبر الذي أدى إلى بلورة الاتجاه الصحيح في الإسلام ، وقاد ثورته التصحيحية فعلاً ، فان دور الإمام السجاد عليه السلام يأتي الأكثر تجلياً في ريادة مشروع هذه الثورة واستكمال فصولها وتجلية مفرداتها وشرح أبعادها ورسم المعالم الحقيقية للخط الإسلامي المحمدي الأصيل.

### المحطة الثانية : في الكوفة والشام :

نعم ، في معسكر الأعداء ، وفي أسر الخصوم ، في الكوفة ومجلس أميرها ، وفي الشام وأمام مليكها والتي لا يقل الموقف البطولي فيها عن ميدان الوغى وحومة الصراع ، يستحضر الإمام السجاد عليه السلام مصارع إخوته وأبناء عمومته ، فيقف شامخاً في قصر الإمارة بالكوفة مع عمّته زينب

وهما يحملان بلاغة علي وعنفوان الحسين وعزّة العباس ، ليقولا بكلام عربي فصيح ومواجهة كلامية حادّة بينهما وبين الطاغية عبيد الله بن زياد ، قولاً لا يمكن أن يقوله ثائر مغلوب منكسر في مثل موقعهما وموقفهما وأمام هذا الطاغية الذي مازال يقطر سيفه من دماء المجزّرين في رمضاء كربلاء من أهل بيت النبوة ..

يلتفت ابن زياد لزينب وهي جالسة حزينة منكسرة وقد صدّ بوجهها عنه فيقول : « من هذه الجالسة؟ » فلا تكلّمه ، ويكرّر فلا تكلّمه ، فيعيد ثالثة وهي مصرّة لا تكلّمه ، حتى يقول بعض إمائها : « هذه زينب بنت فاطمة ».

فقال لها ابن زياد : « الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم ، وأكذب أُحدوثتكم ».

فتقول عليها السلام : « **الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وطهّرنا تطهيراً ، لا كما تقول ( أنت ) ، وإنّما يُفتضح الفاسق ، ويكذّب الفاجر ، وهو غيرنا يا ابن مرجانة .. ».**

فقال : « فكيف رأيت صنع الله بأهل بيتكِ » ، قالت : « **قوم كُتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينك وبينهم فتختصمون عنده ..** » فغضب بن زياد ( واستشاط ) وقال : « قد شفى الله غيظي من طاغيتك والعصاة المردة من أهل بيتك » ، فبكت وقالت : « **لعمري لقد قتلت كهلي ، وأبرتَ أهلي ، وقطعت فرعي ، واجتثثت أصلي ، فإن يُشفك هذا فقد اشتفيت ...** » [1].

---

(١) جميع هذه النصوص وردت في كتاب « الكامل في التاريخ ، ابن الاثير ٣ : ٤٥ » وفيها

ثم يلتفت ابن زياد إلى علي بن الحسين ويقول : « ما اسمك؟ » قال « **علي بن الحسين** » قال : « ألم يقتل الله علي بن الحسين؟ » فسكت ، فقال : « مالك لا تتكلم؟ » قال : « **كان لي أخ يُقال له علي قتله الناس** »!!

فقال ابن زياد : « إن الله قتله » فسكت الإمام عليه السلام .

قال : « مالك لا تتكلم؟ » فقال الإمام علي بن الحسين عليه السلام : « **الله يتوفى الأَنفس حين موتها .. وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله ...** ».

ثم غضب ابن زياد فأراد قتله على جرأته وتجاسره على الطاغية بتلك الأَجوبة ، فتشبّثت به عمّته زينب وتعلّقت به ، وقالت لابن زياد : « **يا ابن زياد ، حسبُك منّا ما أخذت ، أما رويت من دمائنا؟ وهل أبقيت مِنّا أحداً أسألك الله . إن كنت مؤمنا . إن قتلته لمّا تقتلني معه ..** ».

وقال الإمام عليه السلام لابن زياد : « **يا ابن زياد ، إن كانت بينك وبينهنّ قرابة فابعث معهنّ رجلاً تقيّا يصحبهن بصحبة الإسلام ...** » [1].

أمّا في الشام وحيث الدور الإِعلامي أكثر تأثيرا من قعقعة السيوف وطعن الرماح مع ما يستبطن من فضح وكشف واحتمال تصفية وقتل ، يقف الإمام السجاد عليه السلام في مجلس يزيد ويلتمس الإِذن بالحديث فيُسمح له ، فينبري بعد أن يحمد الله ويثني عليه مسفّهاً الدعاوى الأَموية التي حاولت تشويه نهضة أبيه ، وتزييف أهداف ثورته ، قائلاً :

« **يا معشر الناس : فمن عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا أُعرّفه**

---

إضافة خلاصتها : « فقال لها . ابن زياد . هذه شجاعة لعمري لقد كان أبوك شجاعا. فقالت ما للمرأة والشجاعة .. ». وجاءت كلمة ( سجّاعة ) بدل كلمة ( شجاعة ) ، وكلمة ( سجّاعا ) بدل كلمة ( شجاعا ) في مصنفات الشيخ المفيد البغدادي ١١ : ١٦ طبعة المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد.

(١) الكامل في التاريخ ٣ : ٤٣٥.

**نفسي ، أنا ابن مكّة ومِنى ، أنا ابن مروة والصفا ، أنا ابن محمد المصطفى ... أنا ابن من علا فاستعلى ، فجاز سدرة المنتهى ، وكان من ربّه قاب قوسين أو أدنى ، أنا ابن من صلّى بملائكة السماء مثنى مثنى ، أنا ابن من أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأَقصى ، أنا ابن علي المرتضى ، أنا ابن فاطمة الزهراء ، أنا ابن خديجة الكبرى ، أنا ابن المقتول ظلماً ، أنا ابن المجزور الرأس من القفا ، أنا ابن العطشان حتى قضى ، أنا ابن صريع كربلاء ، أنا ابن مسلوب العمامة والرداء ، أنا ابن من بكت عليه ملائكة السماء ، أنا ابن من ناحت عليه الجنّ في الأَرض والطير في الهواء ، أنا ابن من رأسه على السنان يُهدى ، أنا ابن من حرمه من العراق إلى الشام تُسبى .. أيُّها الناس إن الله تعالى . وله الحمد . ابتلانا أهل البيت ببلاء حسن ، حيث جعل راية الهدى والتُقى فينا ، وجعل راية الضلالة والردى في غيرنا ... »** [1].

وهكذا حتى عمّ المجلس النحيب والبكاء . كما تقول الروايات التأريخية . فكشف ما لم يكشف وفضح ما تمّ التكتّم عليه أو يُراد له ذلك ، فذكّر الناس أولاً بنسبه الشريف واتصاله بالإِسلام ونبي الإِسلام ، وأشار إلى العديد من الحوادث التأريخية والجنايات التي ارتكبها جيش الأَمويين باسم الإِسلام وتجاوزت حدود الدين وتعاليمه المعروفة ، كالتمثيل بالقتلى مثلا : « **أنا ابن المجزور الرأس من القفا** » ، والوحشية في التعامل مع الخصم : « **أنا ابن العطشان حتى قضى** » والتطاول على حرمة بيت النبوة ، وبنات المصطفى والمرتضى اللواتي « **من العراق إلى الشام تُسبى** » ... وأكثر من كل ذلك وبصريح القول والعبارة : « **أنا ابن المقتول ظُلما** » ...

---

(١) مناقب آل أبي طالب / ابن شهر آشوب المازندراني ٤ : ١٨٢.

وهكذا ممّا أدى إلى بكاء ونحيب الحاضرين وإشعارهم بالإثم والذنب الكبيرين اللذين ارتُكبا بحقِّ الإسلام ووريثه ، وكيف إن الإسلام الذي يزعمه الامويون اليوم مجسّداً برمزه الماثل أمامهم أصبح أسيرا يُساق مع عمّاته وخالاته من بلد إلى بلد ، ورأس ابن الزهراء أبيه أمامهنّ « **على السنان يُهدى** » ...

إنّه ، باختصار شديد ، وبهذه الخطبة الموجزة أصبح الرمز الذي يقود مسيرة الإحياء . إحياء هذا الدين المضيّع . الذي شوّهته السلطة الأموية وحكمت أو تحكّمت باسمه ... فتراه عليه السلام حين أراد يزيد أن يقطع حديثه بالآذان للصلاة ، يُعلِّق على صوت المؤذن الذي يقول : « أشهد أن محمدا رسول الله » بقوله : « **يا يزيد! هذا جدي أم جدك ؟ فإن قلت جدك فقد كذبت! وإن قلت جدي ، فلمَ قتلتَ أبي وسبيت حرمه وسبيتني؟!** » ، ثمّ قال مخاطباً الناس : « **أيُّها الناس ، هل فيكم من أبوه وجده رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم ؟ » فعلت الأصوات بالبكاء.

وقام إليه رجل من شيعته يُقال له : المنهال بن عمرو الطائي ، وفي رواية مكحول صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيسأله : « كيف أمسيت يا ابن رسول الله؟ ».

فيستثمر الإمام السجاد عليه السلام هذا السؤال فيروح منددّا بالعصابة التي حرّفت دين النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ويضع أُولى العناوين العريضة في هذه المسيرة التبليغية الإعلامية التي قادت وتقود مسيرة الإحياء العظيمة هذه ، برائدها الوحيد الحيّ الباقي ، مؤكداً على الفرعونية الجديدة التي تتحكّم باسم الدين مستنهضاً همم الرجال ، مقرّعاً ضمائرهم ، مناشداً غيرتهم على دين عظيم ضيّعوه بالتواطؤ مع هذه العصابة الضالة المضلّة ، فيجيب

سائله بقول موجز بليغ :

« **ويحك كيف أمسيت؟ أمسينا فيكم كهيئة بني إسرائيل في آل فرعون ، يذبّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ، وأمست العرب تفتخر على العجم بأنّ محمداً منها ، وأمسى آل محمد مقهورين مخذولين ، فإلى الله نشكو كثرة عدّونا ، وتفرّق ذات بيننا ، وتظاهر الأعداء علينا ...** » [1].

وهكذا تبرز وثائقية هذا الطرح الإعلامي البليغ ، ويتجلّى دور الإمام السجاد عليه السلام في قيادة مشروع الإحياء وثورة التصحيح ، ومن هذه المحطة تبدأ رحلة الألف ميل مسافة وعمقاً من الشام إلى المدينة ، ليستأنف الإمام عليه السلام مهمته الرسالية في استكمال هذا المشروع وريادة هذه الثورة.

## المحطة الثالثة : في المدينة المنوّرة :

### ١ ـ دوره العلمي.

ليس الحديث عن الدور العلمي للإمام السجاد عليه السلام مما تجمعه السطور ، أو تفي بالتعبير عنه ؛ ولكن حسبها أنّها تأتي بمعالم تفصح بعض إفصاح عن ذلك الدور وما كان يتمتع به صاحبه من منزلة.

لقد عاش الإمام زين العابدين عليه السلام في المدينة المنورة ، حاضرة الإسلام الأُولى ، ومهد العلوم والعلماء ، في وقت كانت تحتضن فيه ثلّة من علماء الصحابة ، مع كبار علماء التابعين ، فكان بشهادة أكابر أبناء طبقته والتابعين لهم ، الأعلم والأفقه والأوثق ، بلا ترديد.

فقد كان الزهري يقول : ( ما كان أكثر مجالستي مع علي بن الحسين ، وما رأيت أحدا كان أفقه منه ). وممن عرف هذا الأمر وجد به الفقيه

---

(١) مناقب ابن شهر آشوب ٤ : ١٨٢.

سفيان بن عيينة [١].

وبمثل هذا كان يقول الشافعي محتجا بعلي بن الحسين عليه السلام على انه كان ( أفقه أهل المدينة ) [٢]. وبمثله كان يقول معاصر الإمام السجاد عليه السلام أبو حازم المدني [٣] ، وغيرهم كثير.

هذا وقد كانت مدرسته تعجّ بكبار أهل العلم من حاضرة العلم الأُولى في بلاد الإِسلام ، يحملون عنه العلم والأَدب ، وينقلون عنه الحديث ومن بين هؤلاء ، كما أحصاهم الذهبي : أولاده أبو جعفر محمد ( الباقر عليه السلام ) وعمر ، وزيد ، وعبدالله ، والزهري ، وعمرو بن دينار ، والحكم ابن عُتيبة ، وزيد بن أسلم ، ويحيى بن سعيد ، وأبو الزناد ، وعلي بن جدعان ، ومسلم البطين ، وحبيب بن أبي ثابت ، وعاصم بن عبيدالله ، وعاصم بن عمر ابن قتادة بن النعمان ، وأبوه عمر بن قتادة ، والقعقاع بن حكيم ، وأبو الأَسود يتيم عروة ، وهشام بن عروة بن الزبير ، وأبو الزبير المكّي ، وأبو حازم الأَعرج ، وعبدالله بن مسلم بن هرمز ، ومحمد بن الفرات التميمي ، والمنهال بن عمرو ، وخلق سواهم .. وقد حدّث عنه أبو سلمة وطاووس ، وهما من طبقته [٤] ، غير هؤلاء رجال من خاصة شيعته من كبار أهل العلم ، منهم : أبان بن تغلب ، وأبو حمزة الثمالي ، وغيرهم كثير [٥].

هذا الجمع الغفير وغيرهم ممن وصف بالخلق الكثير أخذوا عنه عليه السلام

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤ : ٣٨٩. ومختصر تاريخ دمشق ١٧ : ٢٤٠.

(٢) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد ١٥ : ٢٧٤.

(٣) سير أعلام النبلاء ٤ : ٣٩٤.

(٤) سير أعلام النبلاء ٤ : ٣٨٧.

(٥) راجع : رجال الشيخ الطوسي . باب أصحاب علي بن الحسين عليه السلام .

علوم الشريعة من تفسير القرآن الكريم والعلم بمحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه وأحكامه وآدابه ، والسُنّة النبوية الشريفة روايةً وتدويناً في عصر كانت ما تزال كتابة الحديث فيه تتأثر بما سلف من سياسة المنع من التدوين ، السياسة التي اخترقها أئمة أهل البيت عليهم السلام فكتب عنهم تلامذتهم والرواة عنهم الشيء الكثير ، إلى أحكام الشريعة ، حلالها وحرامها وآدابها ، إلى فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عهد عمدت فيه السياسة على تعطيل الكثير من الأحكام وتبديل بعض السنن وإحياء بعض البدع ، إلى الجهر في نصرة المظلوم وضرورة الرد على الظالم وكشف أساليبه الظالمة للناس.

كما تأدبوا على يديه في مجالسه بآداب الإسلام التي شحنها في أدعيته التي اشتهرت وانتشرت في عهده حتى أصبحت تشكّل لوحدها ظاهرة جديدة في تبني اسلوب روحي متين ، ليس لإحياء القلوب وشدّها إلى الله تعالى وحسب ؛ بل إلى إحياء معالم الشريعة وحدودها وآدابها الأدعية التي حفظ المشهور جداً منها في الصحيفة المعروفة بـ « الصحيفة السجادية » نسبة إليه حيث عرف عليه السلام بالسجاد.

والأثر المحفوظ عنه عليه السلام في كلٍّ هذه الميادين أثر عظيم يجمع أسفاراً جليلة ، تتضمن سائر علوم الشريعة الإسلامية.

وغير ذلك فقد سجّل الإمام عليه السلام سبقا علميا وتاريخيا في رسالة تعد من مفاخر الإسلام وتراثه العلمي ، ألا وهي « رسالة الحقوق » الرسالة الخالدة المحفوظة بهذا العنوان ، والتي استوعبت جلّ الحقوق التي لا يستغني الإنسان عن معرفتها ، ولا يستغني المجتمع عن احيائها والعمل بها ، لأجل أن يكون مجتمعاً إسلامياً حيّاً بحق ، كما أرادت له الشريعة السمحة.

ومن ناحية أُخرى فقد ظهرت في عهده عليه السلام مقولات عقيدية تبنتها فرق إسلامية وتمحورت حولها واتخذت منها مناهج خاصة في فهم عقائد الإسلام وتوجيه أحكامه ، كعقيدتي الجبر والارجاء اللتين روّج لهما الامويون تبريرا لوجودهم في السلطة لمشروعهم السياسي ، وعقيدتي التشبيه والتعطيل في الصفات اللتين اتخذتهما فرق متناقضة بذرائع مختلفة.

وإزاء هذه الاتجاهات وقف الإمام عليه السلام موقفه الواضح والمنسجم مع منهجه في التعليم والدفاع عن مبادىء الشريعة ، فضمّن أقواله الحكيمة وأدعيته المشتهرة نصوصاً تحتث تلك المقولات من جذورها ، من ذلك موقفه مع عبيد الله بن زياد يوم أُدخل عليه في قصر الإمارة وعُرض عليه فقال له : من أنت؟

فقال عليه السلام : « **أنا علي بن الحسين** ».

فقال : أليس قد قتل الله علي بن الحسين؟

فقال له الإمام عليه السلام : « **قد كان لي أخ يسمى عليا قتله الناس** ».

فقال له ابن زياد : بل الله قتله.

فقال الإمام عليه السلام : « ( الله يتوفى الأنفس حين موتها ) [1] » [2].

وكذا موقفه الآخر مع يزيد بن معاوية عند دخوله عليه مع أخواته وعمّاته في الشام.

قال يزيد : يا بن حسين ، أبوك قطع رحمي وجهل حقّي ، ونازعني سلطاني ، فصنع الله به ما قد رأيت.

---

(١) سورة الزمر : ٣٩ / ٤٢.

(٢) الإرشاد / الشيخ المفيد ٢ : ١١٦.

فقال الإمام علي بن الحسين عليه السلام : « ( ما أصاب من مصيبة في الأَرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نَّبرأها إن ذلك على الله يسير ) [1] » [2].

أو ما رواه الطبرسي في الاحتجاج عن ثقاة الرواة وعدولهم ، قال : أنه لما أُدخل علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في جملة من جُمل إلى الشام سبايا من أولاد الحسين بن علي عليه السلام وأهاليه على يزيد . لعنه الله . قال له يا علي! الحمد لله الذي قتل أباك!

قال الإمام عليه السلام : « **قتل أبي الناس** ».

قال يزيد : الحمد لله الذي قتله فكفانيه.

قال الإمام عليه السلام : « **على من قتل أبي لعنة الله ، أفتراني لعنت الله عزّ وجلّ؟** » [3].

أما موقفه عليه السلام من المشبّهة والمجسّمة فنجده قد اتّخذ شكل دعاء ، كما في دعائه في التوحيد إذ يقول : « **إلهي بدت قدرتك ولم تبد هيئة جلالك .. شبهوك وأنا بريء يا إلهي من الذين بالتشبيه طلبوك ، ليس كمثلك شيء .. فتعاليت يا إلهي عمّا به المشبهون نعتوك** » [4].

ولم يدع الإمام عليه السلام مناسبة تمر إلا وأوضح العقيدة الحقّة التي عليها أهل البيت عليهم السلام ، وهي تنزيه الباري جلَّ شأنه وتعظيمه ، وذلك ما تجده شاخصاً في دعائه الأول والثاني من الصحيفة حينما يحمد الله عزَّ وجل ويثني عليه بأجل الصفات وأنزهها.

---

(١) سورة الحديد : ٥٧ / ٢٢.

(٢) الإرشاد ٢ : ١٢٠.

(٣) الاحتجاج ٢ : ١٣٢.

(٤) الصحيفة السجادية الكاملة : ٢٢ الدعاء رقم (٣).

٢ ـ دوره في بلورة المعارضة السياسية.

المؤسف في قراءات ودراسات الكثير من المؤرخين والمحللين السياسيين هو ارتباكهم وعدم دقّتهم في تحديد أدوار أئمة أهل البيت عليهم السلام وتفكيك مدرستهم الفكرية والسياسية في تعاملهم مع السلطات ، وكذلك عدم قدرة هؤلاء المحللين على إدراك حكمة تنوّع تلك الاَوار وفلسفتها وعدم استيعاب حرص الأئمة على الاحتفاظ بوحدة هدفهم في المحافظة على الإِسلام عقيدةً وشريعةً ، نظريةً ومنهاجاً.

يأخذ بعض هؤلاء المحللين دور الإِمام الحسن عليه السلام مثلاً في صلحه مع معاوية ، ويقومون بتفكيكه بعيداً عن ظروفه وأهدافه ، فيُظهرونه ( سلام الله عليه ) مصالحا مساوما متنازلا قد رضي بانصاف الحلول مؤيداً ومبايعاً ، بعيدين عن الإِنصاف والحقّ طبعاً ، وبعيدين عن الدراسة التحليلية المتأنية التي تضفي على البحث العلمي رصانته وموضوعيته ، وللحدِّ الذي يسف البعض فيصفه . عليه السلام . بأنّه مذل المؤمنين . كما خاطبه أحد أعوانه يوما . متناسين رأي أبيه فيه في صفين حين قال : « **إملكوا عني هذا الغلام ، لشدّة مراسه في الحرب والقتال** » ومتجاهلين موقفه هو نفسه . سلام الله عليه . حين خاطب جيشه قائلا : « **ألا إن معاوية دعانا لأمر** ( يقصد الصلح ) **ليس فيه عز ولا نصفة ، فإن أردتم الموت رددناه عليه ، وحاكمناه إلى الله تعالى بظبا السيوف ، وإن أردتم الحياة الدنيا ، قبلنا وأخذنا لكم الرضا ...** » فإذا بالناس من كل جانب ومكان يهتفون ويصرخون ويولولون : « البقية ... البقية »!! [1].

فتجرّ . سلام الله عليه . مرارة ذلك الوصف وقساوة تلك التهمة على

---

(١) الكامل في التاريخ / ابن الأثير ٣ : ٢٠٤ ، ٢١٧.

أن يحملهم على ما يكرهون فيُقال فيه أنّه قتلهم أو قاتل بهم على الملك ، فضلاً عن حرصه على حقن دماء شيعته بعد أن تأكد لديه نكوص جيشه وتخاذل قادته وانهيار جنوده.

وكما تهلهل مثل هذا التحليل مع الإمام الحسن عليه السلام ، كان قد تهلهل مع أبيه عليه السلام حين إتُّهم أنّه لم يكن سياسياً فذّاً ؛ إذ لم يتراجع خطوة إلى الوراء من أجل خطوتين إلى الأمام . كما يقول السياسيون الذرائعيون اليوم . فيهادن معاوية ثم ينقضّ عليه غدراً ، كما هو شأن الأخير وطبعه.

وحين يصل الدور إلى الإمام الرضا عليه السلام أيضا ترى بعضهم يحاسبه على قبوله بولاية العهد ، فيما حاسبه آخرون على عدم قبوله لها في البداية ، فاتهموه بالتفريط بدماء شيعته عبر إصراره على الرفض . حسب زعمهم ..

وهكذا مع الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام اللذين انصرفا إلى العلم وترسيخ العقيدة ، ولم يرفعوا السيف لمواجهة طواغيت زمانهم ، وكأن المؤرخين لم ينظروا إلى أئمة أهل البيت عليهم السلام ، إلاّ من زاوية واحدة أو بُعدٍ واحد ، فجاءت دراساتهم وتحليلاتهم عرجاء تمشي على رجلٍ واحدة ، أو عوراء تنظر بعين واحدة ..

أما موقف الإمام السجاد . موضوع البحث . من الثورة والجهاد فكان هو الآخر عُرضة لهذا التحليل الشاطح الذي وضع أُسسه صنفان من الناس :

صنف يحب الدعة والاسترخاء فيروح يُفسِّر موقفه عليه السلام دعة واسترخاء للتغطية على فشله هو وهزيمته ونكوصه.

وصنف يهوى الثورة والتمرد فيتحامل على الإمام جسارة أو تجرؤا فيتّهمه بحب الدعة والاسترخاء زورا وإفكا.

وهذا يعني أن كلاً من هذين الصنفين . إذا أحسنّا الظن بهما . لم يضع

نفسه في مكانه ، وإنّما درس القضية أو قرأها من خارج الظرفين الزماني والمكاني ، وراح يسبح في فضاء هذا الإمام العظيم ولكن كمن يطير بلا جناح ، أو كمن يتعلّم السباحة على حصير ...

فبعضهم يزعم أنّه اعتزل السياسة والتصدّي بعد فجيعته بوالده وإخوته ، وغدر الغادرين من أهل زمانه ، فاكتفى بالتضرّع والدعاء [١].

وبعضهم يحلّل إنّه آثر الدعاء والبكاء على غيرهما ؛ لأنّهما أيسر مؤونةً وأقلُّ كلفةً من المواجهة والنزال وحزِّ الرؤوس وجزِّ الرقاب .. [٢].

وبعضهم يقول إنّه آثر الدعة والراحة طمعاً بهما بعد أن رأى ما رأى من هول المصائب التي حلّت باخوته وأهل بيته في مجزرة كربلاء ...

ويشطح صنف آخر أكثر من هؤلاء جميعا فيزعم أنّه صالح وساوم السلطة ونأى بنفسه بعيدا عن الثورات الشيعية التي تفجّرت في زمانه ؛ بل تبرأ منها في السرِّ والعلن [٣] . حسب زعمهم . ومن هنا فإنّه أخذ على أيدي هؤلاء الثوار وخذلهم وتنصّل من مسؤوليته تجاه ثوراتهم ، وما إلى ذلك من هذه الدراسات المبتورة والتحليلات الشوهاء ...

فلنتوقف قليلا أمام هذه المزاعم وندرسها بموضوعية وتأن بعيدا عن لغة البُعد الواحد والنظرة الأَحادية والتحليل الجاهز ، وباختصار شديد طبعاً ، آملين ألاّ نكون في هذا البحث الموجز مختزلين أو قافزين على ظهر التاريخ والمؤرخين ..

---

(١) راجع جهاد الشيعة / الدكتورة الليثي : ٢٩.

(٢) حياة علي بن الحسين عليه السلام / كاظم جواد السبتي : ٣٢٠. ونظرية الإمامة / صبحي الصالح ٣٤٩.

(٣) ثورة زيد / ناجي الحسن : ٣٠ . ٣١. وجهاد الشيعة / الدكتورة الليثي.

### المرحلة المنعطف :

بالتأكيد أن مرحلة الإمام السجاد عليه السلام يمكن أن تسجّل منعطفا مهما بين مرحلتين فاصلتين في عمل أئمة أهل البيت عليهم السلام :

**الأُولى :** مرحلة التصدّي والصراع السياسي والمواجهة العسكرية ضد المنحرفين والمحرّفين من الفاسقين والمارقين والناكثين ، وقبلهم الكفرة والمنافقين وأعداء الدين الواضحين ...

**الثانية :** مرحلة المعارضة السياسية الصامتة ، أو الرفض المسؤول الواضح للانحراف ، أمام الضبابية والزيف الملفّع بالدين ، وبعد ذلك بناء القاعدة الشعبية والجماعة الواعية التي تتحمّل عبء الرسالة لمواجهة الانحراف والتحريف اللذين غرقت أو استُغرقت فيهما الحالة الدينية تحت شعارات الإسلام نفسها ويافطات الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ..

ومن هنا ، وحين تختلط المفاهيم ، وتهتزّ القيم وترتجّ المقاييس لابدّ من وقفةٍ متأنيةٍ تتيح للأُمّة أن تلتقط أنفاسها ، وتتأمل في ماضيها وتدرس حاضرها لعلّها تضع بعض الخطوات الصحيحة على سُلّم مستقبلها الآتي ..

تأسيساً على ذلك ، كان أمام الإمام زين العابدين عليه السلام أن يُلفت الأنظار إلى امور كثيرة اختلط حابلها بنابلها ، وكان عليه أن يجذّر أمور أُخرى في عقول وضمائر الجماعة المؤمنة التي يُراد لها أن تحفظ الإسلام عقيدةً ونظاماً ، شريعةً ومنهاجاً ، وليس شعاراً وسوقاً ، أو تجارة واستهلاكا ... ومن هذه الأُمور ما يلي :

١ . تركيز ثورة الإمام الحسين عليه السلام في ضمائر الناس باعتباره خرج لطلب الإصلاح في أُمّة جدّه فعلاً ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، داعياً

لتحكيم دين الله ، ولم يخرج ( أشرا ولا بطرا ) ، بل لم يخرج على إمرة ( أمير المؤمنين يزيد!! ) ولم ينوِ تمزيق الصف المسلم أو تفريق جماعة المسلمين ، وبالتالي فإنّه قُتل بسيف أعداء الدين ، وليس ( بسيف جدّه ) كما كان يروّج الاعلام الرسمي آنذاك ، وبعض المؤرخين المتخلفين اليوم [1].

أي كان على الإمام زين العابدين عليه السلام أن يفضح الشرعية المزيفة التي تقنّع بها الحكم الأموي ، ويكشف زيف شعاراته الإسلامية العريضة ومزاعم انتمائه للنبي والوحي والرسالة الإسلامية ، وبالتالي يوضح معالم الإسلام المحمدي الأصيل والفرق بينه وبين الإسلام المدّعى الملفّع بتلكم الشعارات .. والعناوين واللافتات ..

٢ . بناء الجماعة الواعية ، أو كما تُسمى القاعدة الجماهيرية الشعبية ، المؤهّلة لحفظ الرسالة وحدودها بعيدا عن الزيف والتزييف وسياسة تسطيح الوعي التي غطّت مساحات عريضة من الجمهور المسلم بحيث أضحت تلك الجماهير لا تفرّق بين المفاهيم ومصاديقها ، أو بين الشعارات المرفوعة وضرورة تبنيها ، أو بين الأصيل والطارىء ، الأمر الذي يُسبّب الفتنة فعلاً أو يُشعلها ، ويحجب الرؤية الواضحة عن النفوس البريئة التي تتأثر بالشعار ولا تغوص في أعماق الأمور ...

٣ . تعميق مفهوم الإمامة والولاية في الجماعة الخاصة بعد أن اهتز

---

(١) ابن تيمية ، حياته ، عقائده / صائب عبدالحميد : ٣٩٠ ، الطبعة الثانية.

حيث يقول ابن تيمية بالحرف الواحد : ولم يكن في خروجه مصلحة لا في دين ولا في دنيا ، وكان في خروجه وقتله من الفساد ما لم يكن يحصل لو قعد في بلده.

وراجع : منهاج السُنّة / ابن تيمية ٢ : ٢٤١.

وذهب أبو بكر العربي المالكي في ( العواصم من القواصم ) إلى نحو هذا الرأي.

لدى العامّة تحت ضغط الإعلام المزيف وأبواقه المأجورة ، ومن ثمّ توضيح الخرق الفاضح الذي تمَّ خلاله فصل المرجعية الفكرية عن المرجعية السياسية أو الاجتماعية ، وبالأحرى فصل الدين عن السياسة ، وإبقاء مقاليد الأُمور بيد الصبيان والغلمان ، يعبثون بمقدرات البلاد والعباد.

٤ . العمل بدقّة في مقطع زمني بالغ الحساسية ، يحسب على الإمام حركاته وسكناته ، ويعدّ عليه أنفاسه وكلماته من جهة ، وموازنة ذلك مع عمل إعلامي وتبليغي بالغ الصعوبة والتعقيد لكشف المعالم الحقيقية للدين ، بعيداً عن عيون السلطة ورقابتها وأزلامها وجواسيسها المنتشرين في كل زاوية وزقاق ، من جهة أُخرى ...

### القتال على جبهات متعددة :

ومن هنا كان على الإمام أن يقاتل على جبهات متعددة ويستخدم لغات متعددة في آن واحد ، وهذا أشقّ ما يتحمله أي زعيم سياسي أو قائد ديني يريد مواصلة مسيرته وتركيز خطّه في خندقين متقابلين :

خندق العمل السري ، وخندق الساحة العلنية المكشوفة التي تتربص به الفرص ، وتحسب عليه الكلمات ، وربما تسعى لاستدراجه والايقاع به وإبعاده عن أصحابه أو إبعادهم عنه ، وخاصة الخلّص المؤثرين فيهم ، لئلاّ يتأثروا به ويحملوا رسالته وإشعاعاته ودفين أسراره وتحركاته وأهدافه ..

أمام هذا المأزق ، وحيث لم يبق في مدينة الرسول ومكة « **أكثر من**

**عشرين رجلا يحبوننا أهل البيت** » كما قال الإمام زين العابدين عليه السلام [1] ، ولم يبقَ من خيار أمام الإمام إلاّ التحرك بحذر وتؤدة ، ربما لا يُفهمان حتى من قبل بعض المخلصين الذين يريدون أو يرغبون موقفا علنيا صريحاً تجاه تحركاتهم التي تُحسب عليه ولا تحسب عليهم باعتباره الرمز والمحور وهو المتهم بأنه المحرّ لكلِّ تيار معارض أو متململ ضد السلطة والحاكم.

وبذلك فإنّه أوحى للسلطة بأنه ابتعد تماماً عن العمل السياسي وانصرف للتعبّد والدعاء ، وهو من ناحية أُخرى يسعى إلى تركيز المفهوم الإمامي الذي وأُلى أولوياته مواجهة الظالم بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ...

وهنا حار المؤرخون فعلا في تشخيص موقف الإمام من حركات المعارضة وخاصة تلك التي اشتعلت قريباً منه ، أو تلك التي رفعت شعارات شيعية مثل ثورة التوابين بقيادة سليمان بن صُرد الخزاعي ، أو ثورة المختار وشعارها المعروف : « يالثارات الحسين »!!

فمن قائل إنّه عليه السلام تبرأ من ثورة المختار مثلاً ، إلى قائل إنّه حينما جيء له برأس عبيدالله بن زياد ورأس عمر بن سعد وببعض قتلة الحسين ، خرّ ساجداً لله قائلاً : « **الحمد لله الذي أدرك ثأري من أعدائي ، وجزى الله المختار خيراً** » [2].

ومنهم من قال إنّه لم يُحب على رسالة المختار ورفض دعوته ببيعته له عليه السلام ، وإن ذلك من حقّه ، لكون المختار لم يَستَشِرْه في تحركه أو حركته

---

(١) الإمام السجاد عليه السلام / حسين باقر : ٦٣.

(٢) رجال الكشي : ١٢٧ / ٢٠٣ عن عمر بن علي بن الحسين. ومناقب آل أبي طالب ٤ : ١٥٧.

وإنّه كان بعيداً عنه ولم يكن الإمام يعرف مكنون توجهاته ونواياه ، إلى قائل : إن المختار لم يتحرك إلاّ تحت إشارته وتلقّي الضوء الأخضر منه ، وهكذا بين مشرّق ومغرّب ويمين ويسار.

أمام هذه المفارقات أو المفترقات لابد من القول أن الطريق الأفضل لا يستكمل الإمام كافة أهدافه ، كان عليه توزيع الأدوار وعدم الانجرار إلى لعبة السياسة القذرة ، والاحتفاظ بالقدر المعقول من حلقاتها التي يستفيد منها القائد ، ولكن لا أن يقع في مستنقعها الآسن ، فتحسب عليه بعض شطحاتها والتواءاتها وتجاوزاتها ...

هذه الموازنة الدقيقة أو المعادلة الصعبة ، لم يكن من السهل على الإمام السجاد عليه السلام عبورها أو تمريرها ، لاسيّما وانه كان يمارس عمله تحت الأضواء وفي الهواء الطلق وتحت رقابة العيون والجواسيس من جهة ، وبالتالي فلا ينبغي أن يوحي للسلطة أنّه معارض يبغي الحكم والسلطة ، ولكنه من جهة أُخرى يريد التأكيد على أنّه وصي ووريث ذلك الإمام العظيم الذي ستبقى حرقة قتله تلتهب في نفس كلّ شريف عرفه وعايشه وعاشره ، فضلاً عن كونه نجله وولده والمفجوع الأول بقتله والمسؤول عن الثأر له ومواصلة طريقه ، فضلاً عن أنّه حامل رسالته ومؤدي أماناته وامتداده والإمام المستخلف من بعده على البلاد والعباد ...

هكذا كان الإمام السجاد يحيا ، وهكذا كانت تمر أيام حياته وساعاته غصّة بعد غصّة ، وألماً بعد ألم ، والمهمة تكبر وتكبر ، وعليه إتمام المشوار وإكمال الشوط إلى النهاية.

فهو من جهة لا يريد المغامرة بتركة ثقيلة عليه أداؤها في تبليغ الرسالة وحمل الأمانة وبلورة أحكام الدين التي سفّهها حكام بني أمية وجعلوها

مهزلة وحكاية ، ومن جهة أُخرى يريد تحريك أجواء الصراع ضد الظالمين واستثمار فضاءاته الحرّ لتطويق مساعي الحكام الأمويين في الالتفاف على جريمتهم في تحريف الدين وخبثهم في احتواء غضب الأُمّة المقدس ضد قتلة الإمام الحسين عليه السلام وأصحاب الحسين.

ومن جهة ثالثة : لا يريد أن يُتّهم أنه اعتزل التصدي تشبثا بالحياة وحرصا على حطامها ، بل انه كان يسعى إلى تسفيه تلك التهمة باعتباره أزهد الناس في حياة نتنة ( اغتالت حسين السبط واختارت يزيدا ) ...

وفوق ذلك كلّه أنّه عليه السلام لم يرد أن يعطي للمتقاعسين والمتخاذلين عذرا آخر لتبرير قعودهم وغدرهم واحتمائهم بعزلته وانطوائه ، أي اتخاذ ذلك ذريعةً وغطاءً لنكوصهم وجبنهم وتهافتهم على الدنيا وملذّاتها ، وبالتالي مواصلة طريق الانحراف الذي كان عليه السلام أصدق الناس في محاربته ، وأمضاهم في مناجزته ومناوءته ...

**الحصيلة :**

كانت حصيلة هذا العمل الدؤوب والمنهج الحكيم ، والموازنة الدقيقة ، وبعد أن كان الناس قد ( ارتدوا إلا ثلاثة ) و ( لم يبق في المدينة ومكة أكثر من عشرين شخصا محبا لأهل البيت ) ـ كما ذكرنا . ، وبعد انقطاع مفتعل موهم عن مسرح الأحداث ، واستثمار موفّق لظروف الزمان والمكان ـ كما سيأتي ذكره ـ كانت الحصيلة أن استطاع الإمام السجّاد عليه السلام وعدد قليل من المخلصين الذين تظافرت جهودهم على نصرته أن يحقق نتائج قياسية ويترك آثارا عظيمة لا يقدر على تحقيقها أي زعيم أو قائد يمرُّ بظروفه وتعقيدات المقطع الزمني الحساس الذي عاشه أو تفاعل معه

أو انفعل فيه.

وكان من هذه الآثار الارقام التالية :

* ( كان القرّاء لا يخرجون إلى مكة حتى يخرج علي بن الحسين ، ومعه ألف راكب ).

* ( كان القوم لا يخرجون من مكة حتى يخرج علي بن الحسين سيد العابدين ).

* ( قال الزهري : نعم .. لقيته وما لقيت أحداً أفضل منه ، والله ما علمتُ له صديقاً في السرِّ ، ولا عدّواً في العلانية ، فقيل : وكيف ذلك؟ قال : لأني لم أر أحدا وإن كان يحبه إلا وهو لشدّة معرفته بفضله يحسده ، ولا رأيت أحداً وإن كان يبغضه إلاّ وهو لشدّة مداراته له يداريه ... ) [1].

* ( ... حج هشام بن عبدالملك فلم يقدر على استلام الحجر الأَسود ، من شدّة الزحام فنُصب له منبر فجلس ... إذ أقبل علي بن الحسين عليه السلام وعليه إزار ورداء ، فجعل يطوف ، فإذا بلغ موضع الحجر تنحّى الناس حتى يستلمه هيبة له وإجلالاً .. ) الأَمر الذي أزعج هشام ، فسأل متجاهلا له : من هذا؟ فكان جواب الفرزدق في قصيدته المعروفة التي دفع ضريبتها بعد فترة وجاء فيها :

هـذا الـذي تعـرف البطحـاء وطأتـه ... والبيـت يعرفـه والحـلُّ والحـرم

هـذا ابـن خـير عبـاد الله كلُّهـم ... هـذا التقـي النقـي الطـاهر العلـم

---

(١) بحار الأَنوار / المجلسي ٤٦ : باب ٥ . ٢١ ، معلوم أن الزهري من علماء الدولة .. ويبدو أن تحليله للحب والكراهية هنا قد جنح في مالا يمكن تفسيره إلاّ بمعنىً آخر لا نرى ضرورة للتفصيل فيه ، لكونه لم يخرج إلاّ من موقف الزهري من الإمام عليه السلام ، والزاوية التي كان ينظر إليه من خلالها ..

إذا رأتـــه قـــريش قـــال قائلهـــا إلى مناقـــب هـــذا ينتهـــي الكـــرم

ولـــيس قولـــك مـــن هـــذا؟ بضـــائره العُـــرب تعـــرف مـــن أنكـــرت والعجـــم [١]

* ( وقال القرشي لابن المسيّب : ... ثم غاب عني فترة حتى أتيتُ مكة ، فإذا بحلقة مستديرة ، فاطلعتُ لأنظر فإذا صاحبي فسألت عنه ، فقيل : هو زين العابدين ... ) [٢].

* أثناء ثورة المدينة التي تفجّرت ردّ على مجون الأمويين وقتلهم لآل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فزع مروان كأشد ما يكون الفزع مع عياله إلى بيت الإمام زين العابدين ؛ لأن الثورة كانت تستهدفه ، فضمّ الإمام نساء الأمويين إلى حرمه ، وقيل أنّه كفل أربعمائة امرأة مع أولادهن وضمهن إلى عياله حتى قالت واحدة منهن : إنّها ما رأت في دار أبيها من الراحة والعيش الكريم مثل ما رأته في دار الإمام علي بن الحسين عليهما السلام [٣].

* وصفه عمر بن عبدالعزيز قائلا : ( إنّه سراج الدنيا وجمال الإسلام ) [٤].

* و ( لما مات شهد جنازته البرّ والفاجر وأثنى عليه الصالح والطالح ، وانهال الناس يتبعونه حتى وضعت الجنازة ) [٥].

---

(١) رجال الكشي : ١٢٩ ـ ١٣٠ / ٢٠٧.

(٢) بحار الأنوار ٤٦ : باب ٥ ـ ٧٨.

(٣) الإمام زين العابدين / أحمد فهمي : ٦٤.

(٤) مقدمة الصحيفة السجادية / السيد محمد باقر الصدر : ٦.

(٥) رجال الكشي : ١١٧ ـ ١١٨ / ١٨٨ عن سعيد بن المسيّب.

## الفصل الثاني

## ظاهرة البكاء عند الإِمام زين العابدين عليه السلام

### بين البكاء والتباكي :

بين البكاء والتباكي الهادفين خيط رفيع لا يمكن تجليته واكتناه فلسفته إلا بفهم الهدف من البكاء أولاً ، والتباكي ثانياً.

فإذا كان الهدف من البكاء هو تربية النفوس وتجلية الصدأ الذي يرين عليها جرّاء زحمة الحياة وقساوة العيش ، ومن ثم توجيه البكاء إعلامياً للتأثير على الناس كشكل من أشكال العمل السياسي أو الرسالي الهادف النبيل ، يأتي هنا ممدوحاً ومندوباً ، وهو غير الجزع والضعف والنفاق والرياء الذي له أهداف هابطة أُخرى.

أي أنّه في الدائرة الأُولى عاطفة نبيلة يمكن أن تنتزع من الإِنسان دواعي قسوة القلب وغلظته وشدّته ، وتحيله أكثر شفافية وسماحة ورقّة من جهة ، وهو عمل تربوي لتوجيه النفوس وتربيتها وتهذيب مشاعرها وأحاسيسها من جهة أُخرى.

وهكذا التباكي هو الآخر ، إمّا أن يكون تمثيلاً أجوف لا هدف وراءه ولاجدوى منه ولا طائل ، وإمّا أن يكون مواساةً للباكي في صدق بكائه وتصديق انفعاله وتفاعله مع حدث ما أو مصيبة ما ، أو يكون مشاركةً إنسانية ووجدانية تواسي المبكى عليه في عظمة تضحيته ونبل إقدامه

وهيبة موقفه ، وبالتالي فإنّ الدائرة الأُولى غير الثانية بالتأكيد ..

ومن هنا نلمس الفرق بين الندبة المعروفة :

ويصـــــيح واذلاّه أيـــــن عشـــــيرتي وســـــراة قـــومي أيـــن أهـــل ودادي

وبين الأُخرى التي تفجّر الدموع دما :

لا تطلبوا قبر الحسين بشرق أرض أو بغرب فـدعوا الجميـع وعرجّـوا فمشـهده بقلـبي

## تفسير ظاهرة البكاء عند الإمام عليه السلام :

وكما ارتبك بعض المؤرخين في تفسير دور الإمام السجاد عليه السلام في ريادة مشروع المعارضة للسلطة الأموية ، وأخفقوا في تفسير مواقفه الدقيقة لبلورة الاتجاه المناهض لها ، ارتبك بعضهم الآخر في تفسير ظاهرة البكاء المعروفة لديه ، وراحوا يشرّقون حولها ويغرّبون أيضاً ..

نعم ، اتجه بعضهم إلى تحليل الظاهرة على أنها فجيعة ولدٍ بأبيه وأخوته فقط ، وبالتالي فانها لا تعدو كونها عاطفةً جياشةً لا يمكن التحكّم بانفجارها وتدفّقها في لحظات الانفعال الوجداني الذي لا يُكبح .. فيما اعتبرها آخرون أُسلوبا سياسيا ذكيا لاستنهاض الناس وتذكيرهم بالظلامة الكبيرة التي لحقت بأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وبين هذا التفسير وذاك ، راح المؤرخون يحلّلون ويكتبون ويبحثون ، وكلّ من زاويته أو فهمه للبكاء والتباكي ، فمن حزين مفجوع ينفّس ببكائه عن غصّة وألم دفينين لا يستطيع منهما فكاكاً ، إلى بكّاءٍ متباكٍ ينوي ببكائه وتباكيه إذكاء نار الغضب المقدس ضد الظالمين الذين تجرأوا على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه والصفوة من خيرة خلق الله بعد

النبي صلى الله عليه وآله وسلم ..

ومن هنا فلا يستطيع المؤرخ أو المحلل السياسي تفسير ظاهرة البكاء لدى الإمام السجاد تفسيرا علميا رصينا إلا من خلال دراسة الظروف التي عاشها عليه السلام والفضاء الإعلامي والسياسي الذي كان يتنفّس فيه ، وإلاّ شطّ به التحليل بين أقصى اليمين وأقصى اليسار ، وجنح في تفسير هذه الظاهرة وفق ظروف أُخرى ، ربما نفسية أو اجتماعية ، أو سياسية ، هي في الحقيقة ، غير تلك التي يجب أن تفسّر من خلالها أو على ضوئها ...

فحين نفهم مثلا أن طائفة كبيرة من الناس كانت تجهل الدواعي والأسباب التي دفعت الإمام الحسين عليه السلام لخوض تلك المعركة غير المتكافئة ، يمكن أن نمسك بخيط واحد من خيوط التفسير العلمي لبكاء الإمام السجاد عليه السلام .

وحين ندرك أن الإعلام الأموي كان يفسّر خروج الإمام الحسين عليه السلام ضد الطاغية يزيد بأنّه صراع على السلطة ، وأنه بخروجه إنّما شقّ عصا الطاعة وفرّق الجماعة ، وأن الصراع بين الحسين ويزيد إنّما هو صراع شخصي تفجّر بين عائلتين أو بيتين يعتدُّ كل منهما بتأريخه وأمجاده ، وهما البيت الأُموي والبيت الهاشمي ، ويعتقد كلّ منهما بوراثته لتراث النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، تكون الكارثة أكبر والرزيّة أدهى على الإمام السجاد عليه السلام ، لأنّه سيواجه صعوبة بالغة في توضيح هذا المشتبك المؤلم ، ولو عِبر الدموع الغزيرة والنحيب المتواصل الذي أصبح إحدى خصال نفسه الزكية ، وطابعاً لروحه الطاهرة.

ولما كان إعلام السلطة آنذاك هو الحاكم والمهيمن على عقول الناس وأفكارهم ، وللحدِّ الذي يواجه به أحدهم الإمام الحسين عليه السلام

قائلا ( ياحسين ألا تتقي الله : تخرج من الجماعة وتفرّ بين هذه الأُمة ) [1].

وأكثر من ذلك حين يواجه المرء نداءات تخرج من هنا وهناك في أرض المعركة ، تقول ( الزموا طاعتكم ولا ترتابوا في قتل من مرَق من الدين وخالف إمام المسلمين ) وفي رواية أُخرى ( أمير المؤمنين ) [2].

وحين يسمع عفوية ذلك الشيخ الكبير الذي لا يعرف من الامور شيئاً ، فراح يواجه السبايا عند دخولهم الشام بقوله : ( الحمد لله الذي أهلككم وقتلكم وأراح البلاد من رجالكم وأمكن منكم أمير المؤمنين يزيد ) [3].

تكون الرزية أكبر على الإمام السجاد عليه السلام ، ويكون نشيجه هو المتنفّس الوحيد للتعبير عن الألم والمرارة ، وهو تحت مخالب اللئام وصليل سيوفهم وقعقعة رماحهم.

### المواجهة أو الصبر :

في هذا الجو الإعلامي الماكر ، ومن هذا الفضاء الملبّد بكل تهويمات التضليل ، والتكتم والتعتيم على أعظم ثائر وأعظم ثورة أرادت أن تعيد الحق إلى نصابه ، وتستنهض الضمائر الميّتة وبتضحية قلّ نظيرها في التاريخ البشري انتصاراً للدين المضيّع والحدود المستباحة ، كان على الإمام السجاد أن ينتهج أحد خيارين :

---

(١) راجع : تاريخ الطبري ٤ : ٢٨٩ ، والقول هذا منسوب إلى يحيى بن سعيد الذي أرسله أمير مكة لإرجاع الحسين وثنيه عن التوجه إلى العراق.

(٢) تاريخ الطبري ٤ : ٣٣١.

(٣) الإمام السجاد / حسين باقر : ١٠٢.

**الأ َل :** هـو المواجهـة العلنيـة الصـريحة ، والتنديـد المباشـر بـاجراءات السـلطة الحاكمـة وفضحها ، أي إقدامه عليه السلام على عملية استشهادية أُخرى تلحقه بأبيه وإخوته ، لا تكلّف خصومه أكثر من ضربة سيف واحدة لايتردّ عن القيام بها جلواز واحد من جلاوزة السلطة يتقرب بها إلى الأَمير ، دون أن يرفّ له جفن أو يحاكمه ضمير ، وفي أُمّة ميتة لم يبقَ فيها للدم حرمة ولا للتضحية معنى أو صدى .. وبالتالي إيقاف أو إنهاء الدور الرسالي المهمّ الذي يسعى الإمام السجاد عليه السلام إلى تحقيقه من خلال كشف تلك الغيوم وتبديدها ...

**والثاني :** هو الصبر على ذلك الضيم أو الحيف الذي شمله مع عمّته العقيلة زينب عليها السلام وتمرير المرحلة بالعض على الجرح بنيّة مواصلة مراحل الكشف المطلوبة في كل عملية تغييرية يُراد لها أن تعيد الأُمّة المضللة إلى وعيها ، أو تعيد الوعي إلى الأُمّة المغلوبة على أمرها ، المسلوبة إرادتها المغيّب ضميرها ، وفي ذلك الهوس الإعلامي الصاخب ، والمناخ السياسي المليء .

من هنا كان على الإمام أن يختار طريقا أو منهجا يحقّق له هذا الهدف الكبير دون المساومة على مبادئه أو التفريط بها ، أو القفز عليها ، فاختار طريق البكاء أولاً ، ثم طريق الدعاء الذي سنأتي على ذكره في الفصل اللاحق إن شاء الله.

### ماذا حقق البكاء؟

وعن طريق البكاء هذا المشفوع بالدعاء طبعاً ، استطاع الإمام عليه السلام أن يحقق الأَغراض التالية :

١ . تقريع أو استنهاض الضمير النابض في الأُمّة والذي لم يمت بعد ، أي مخاطبة الفطرة السليمة ، من خلال دموع ساخنة ونشيج صادق لايمكن تفسيره ببساطة على أنّه مجرد عواطف فائرة على فجيعةٍ مرّت وكارثة حلّت ، لا سيّما وانه من إمام يعرف أكثر من غيره القضاء والقدر وحتمية الموت وطوارق السُنن ...

٢ . استثمار جميع المواقف والمناسبات التي تُذكّر الناس بالجريمة الكبرى التي ارتكبت بحق سبط النبي وسيد شباب أهل الجنة ، وعبر بكاء حارّ صادق يتفجّر أمام قصاب مثلاً يذبح شاته فيسقيها ماء قبل ذبحها . كما مرَّ . أو أمام ضيف فقد عزيزا فغسّله وكفّنه . كما ذكرنا . أو على مائدة إفطار يُقدّم فيها الماء للعطاشى والضامئين ويكون شعارها مثلا :

«شيعتي ما إن شربتم عذب ماء فاذكروني أو سمعتم بذبيح أو قتيل فاندبوني»!

وغير ذلك مما كان يذكّر بتجاوز الحدود ، وقساوة القلوب ، أي قلوب القتلة التي كانت كالحجارة أو أشدُّ قسوة ، وهذا يعني تركيز الشعور بالإثم الكبير الذي ارتكب في طفوف كربلاء والذي صار عنوانه : « **اللهمَّ العن أُمّة قتلتك ، والعن أُمّة ظلمتك ، والعن أُمّة شايعت وبايعت على قتلك ، والعن أُمّة سمعت بذلك فرضيت به** »!!

٣ . إيهام السلطة الحاكمة وعيونها وأزلامها ومرتزقتها أنّ المفجوع ليس لديه إلاّ البكاء ، وأنّه ليس عملاً جُرمياً يبرّر للسلطة اتخاذ إجراءٍ قمعي لمواجهته ، فكيف إذا كان المفجوع باكياً فعلاً وليس متباكياً ، كما هو حال الإمام عليه السلام !!

٤ . وحين تختلط دموع البكاء مع تراب قبر المتوفّى ، وهو ما كان يفعله

الإمام حين كان يُطيل سجوده وبكاءه على التراب الذي احتفظ به من ثرى قبر والده ومسحه بخاتمه الذي أصر على لبسه والمحافظة عليه مع الشعار المنقوش عليه والذي كان يردده عليه السلام : « **خزي وشقي قاتل الحسين بن علي** » [1] ، تكون رسالة البكاء أكثر تعبيراً وأمضى أثرا في إذكاء الوجدان المعذ ّ والضمير الحي وتفجيرهما ضد الظلم والظالمين.

٥ . أما حين يمتزج البكاء مع الدعاء ، الذي سنأتي على ذكره ، وتتكامل لوحة الرفض المقدس عبر العاطفة والفكر ، وعبر العقل والقلب ، يكون الهدف من البكاء أكثر تجليّاً وسطوعاً ، وهذا ما كان يُلاحظ عند الإمام عليه السلام وهو يخرُّ ساجدا على حجارة خشنة في الصحراء يوما ويشهق شهيقا مر ّ مرد ّا : « **لا إله إلا الله حقا حقّا .. لا إله إلا الله تعبّدا ورقّا .. لا إله إلا الله إيمانا وصدقا ..** » ثمّ يرفع رأسه وإذا بلحيته ووجهه مخضبان بدموع عينيه ، فيقول له أحد أصحابه : أما آن لحزنك أن ينقضي ، ولبكائك أن يقلّ؟! ويأتيه الجواب المار الذكر ، ليكون دالّة معبّرة عن حزنٍ ليس كمثله حزن ، وبكاء ليس كمثله بكاء ...

إنّه بوضوحٍ كاملٍ حزنٌ على رمزٍ مقدّس بكت عليه أهل الأَرض وملائكة السماء ، وليس حزن ولدٍ على أبيه قط ، وإنه حزنٌ على فجيعةٍ بدين ، أي أنّه حزن على دين مضيّع صيّره الصبيان لعبةً يعبث بها غلمان بني أمية ، ودمية تتلاقفها أكفُّ أحفاد أبناء الطلقاء ...

إنّه باختصار شديد ، رسالة صامتة شديدة اللهجة ، ودموع حرّى ناطقة ، وبيان صارخ مشحون بعواطف البكاء النبيلة ممزوجة بثرى تراب طاهر ، مشفوعاً بتأوّهات خالصة أرادت وتريد أن تواجه الظا لم بأفصح

---

(١) الكافي ٦ : ٤٧٤ / ٦ ، عيون اخبار الرضا ٢ : ٥٦.

ما يكون التعبير عن الرفض والغضب المقدّس وأقدس ما يكون الإفصاح عن الثورة والتمرّد.

إنّه سلاح ماضٍ لكشف الجرم الكبير وفضحه والدعوة لقطع اليد التي نفّذته ، وأمام من؟ وبدموع من؟

بدموع الثائر المفجوع الذي لم يستطع الاستشهاد في اليوم العظيم ، لمرضٍ أقعده ، وعلَّة ما كان يستطيع الوقوف على قدميه بسببها ، فشاءت إرادة الله أن تحتفظ به ليكشف خيوط الجريمة الكبرى وهو يبكي وينشج ويقول :

وهـــن المنايـــا أي واد ســـلكته عليهـــا طريقـــي أو علـــي طريقهـــا

وكـــلا ألاقـــي نكبـــة وفيجعـــة وكـــأس مـــرارة ذعافـــا أذوقهـــا [1]

ثم يختتمها بدعاء دامع حزين : « **يا نفس حتّام إلى الدنيا سكونك؟ وإلى عمارتها ركونك؟ أما اعتبرت بمن مضى من أسلافك؟ ومن وارته الأرض من أُلاّفك؟ ومن فجعت به من إخوانك؟ ونُقل إلى الثرى من أقرانك؟ فحتّام إلى الدنيا إقبالك ، وبشهواتها اشتغالك وقد رأيتِ انقلاب أهل الشهوات ، وعاينتِ ما حلَّ بها من المصيبات ...** » [2].

نعم ، إنّه البكاء الهادف ، والنشيج المدوّي ، والدموع الناطقة ، إنه

(١) من ندبة طويلة له عليه السلام انظر الصحيفة الخامسة السجادية للسيد محسن الأمين دعاء (١٠٩). والبحار / المجلسي ٧٨ : ١٥٤. وينابيع المودّة / الحافظ القندوزي الحنفي : ٢٧٣. وكشف الغمة / الاربلي ٢ : ٣٠٩.

(٢) البلد الأمين / الكفعمي : ٣٢٠. والصحيفة ٤ : ٢٩.

رسالة صامتة شديدة اللهجة صارخة الاحتجاج ، محبوكة المتن ، متينة السند .. إنّه بكاء أفقه أهل زمانه وأعلمهم وأورعهم وأتقاهم ، حفيد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وابن سبطه ، المفجوع بقتله ، الشاهد على دمه ، حامل رسالته ومبلّغ أمانته ووصيه ووريثه والداعي إلى حقّه .. إنّه بكاء علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام .

## الفصل الثالث

## ظاهرتا العبادة والدعاء عند الامام عليه السلام

### التفسير المبتور للظاهرتين :

لم يكن تفسير المؤرخين لظاهرتي العبادة والدعاء للإمام زين العابدين عليه السلام بأوفر حظا من تفسيرهم لظاهرة البكاء المارّ الذكر .. ؛ إذ اقتصر بعضهم على تفسيرهما بكونهما حالة من الاعتزال والانكسار النفسي الذي يحلُّ عادة بالمصدومين والمفجوعين بسبب هول الصدمة أو الفجيعة التي مرّوا بها أو مرّت بهم ...

ويفسرها آخرون بأنّها نوع من العزاء والسلوى والتصوّف ، حيث ينكفىء أصحابها على أنفسهم في طقوس خاصة وانزواء واعتكاف لا علاقة له بالناس والمجتمع وهمومهم وآلامهم ...

وبين هذين التفسيرين المتيسّرين اللذين يمران على الأُمور بظواهرها ولا يغوصان في أعماقها ، يأتي تفسير مبتور ثالث يؤكد أنّ دعاء الامام وعبادته لم يكونا يتعديان مناقبية مثالية علوية عظيمة ، وفضيلة وكرامة من فضائل وكرامات أهل هذا البيت الطاهر ، وحيث ينظر إلى المنقبة والكرامة على أنّها أسمى ما يمكن أن يوصف بها الإنسان المغيّر في زمن التداعيات السياسية والصراع الفكري والحضاري ..

ولئن كان في هذا التفسير بعض حق ولكنه ليس الحق كلّه ، لاسيّما وإن

ما ينتظر من أمثال الامام السجاد عليه السلام هو أكبر من المناقبية والفضيلة والكرامة ، وإنّما العمل والجهاد والكفاح لمواصلة مشروع تغييري يكون أهل البيت عليهم السلام أجدر الناس وأولاهم بتبنّيه وتنفيذه في ظلمة ذلك الواقع الفاسد ...

نعود ونذكّر بالأسباب والظروف التي أملت على الامام السجاد هذا النوع من السلوك في فترة كان المجتمع الإسلامي الممزّق أحوج ما يكون إلى التأمل والمراجعة وإعادة النظر بعيداً عن ضجيج السياسة الصاخب وأزلامها المسطحين المستهترين.

فماذا ترى الامام فاعلا وهو يعيش أجواء كابوس خانق من الظلم والتعسف والاضطهاد يحمل لواءه عبدالملك بن مروان ، وخلفه ولاة قساة غلاظ كالحجاج وخالد القسري وبشير بن مروان ، يتوّجهم طاغية جبّار مستهتر لا يتردّد أن يمسك بالقرآن الكريم ويمزّقه ويخاطبه مهددا :

تهـــــددني بجبـــــارٍ عنيـــــد     وهـــــا أنـــــا ذاك جبـــــار عنيـــــد
إذا لاقيـــــت ربـــــك يـــــوم حشـــــر     فقـــــل يـــــارب مـــــزّقني الوليـــــد

وهذا يعني أن الامام عليه السلام عاصر الفترة الاُولى من حكم يزيد الأموي بكامل عنفها واستهتارها ، أعقبتها تسع سنين من الاضطرابات والفوضى والصراع على السلطة بين الأمويين والزبيريين ، وما رافقها من ثورات شيعية وقتل وقتال لم تترك أحداً إلاّ وناشته رذاذة أو شظية من شظايا تلك المرحلة الفظّة وصراعاتها ودمويتها وارتجاج المقاييس والقيم في فضائها العابث الصاخب ...

### طريقان لا ثالث لهما :

ومن هنا كان أمام الامام عليه السلام أحد طريقين : إمّا الاحتراق بهوس تلك الصراعات والضياع في خضم اصطكاك سيوف رجالها المتنافسين المتصارعين على الجاه والسلطة والمال.

وإمّا الابتعاد عن ذلك الهوس السياسي والصخب الدموي لحين انجلاء الغبرة ، والنأي بعيدا عن ذلك بالانشغال ببلورة الفكر الإسلامي المغير وإعداد النخبة الصالحة التي تذكّر بالصفوة المجرّرة من آل بيت المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم التي لم يبق منها أحد سوى هذا العبد الصالح المقصي البكّاء الحزين ...

اختار الامام الطريق الثاني بالتأكيد ، وراح يعدّ العدّة لاعداد المجموعة الصالحة المؤهّلة لحمل رسالة جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في تلك الاجواء العابثة الملبّدة ، وكان عليه أن يُشعر السلطة الظالمة قبل غيرها ، أنه ابتعد عن معترك الصراع السياسي ، واعتزل الحياة العامّة ، منشغلاً بعبادة ربّه ، منصرفاً عن مشاغل الدنيا ومتاعبها .. فكان ( أن ضرب له بيتا من الشعر خارج المدينة وتفرّ فيه للعبادة والابتهال ) [1].

### الهدف الحقيقي :

ومن ذلك المكان النائي ، ومن تلك الخيمة المتواضعة وبهذا السلوك أو المنهج استطاع الامام تحقيق الأهداف التالية :

١ . إشعار الناس والمجتمع أن العمل السياسي ليس هو وحده الكفيل بتشكيل النخبة المغيّر القادرة على قيادة المشروع الإسلامي المغيّب من

---

(١) الإمام زين العابدين / عبد الرزاق المقرّ : ٤٢.

قبل السلطات الظالمة ، وخاصة في زمن ارتجاج المقاييس واهتزاز الثوابت لدى القاعدة الجماهيرية الشعبية التي يعوّ عليها تنفيذ عملية التغيير المطلوبة هذه ...

٢ . ترسيخ أو بناء مفهوم جديد للعلاقة مع الله تعالى عبر الدعاء والمناجاة ، وإملاء الفراغ الروحي الناشئ عن حالات الإحباط وخيبة الأمل التي خلّفتها سياسة دموية عابثة تلفّعت بشعارات الإسلام ، ولكنّها لم تنتج إلاّ الهوس والسعار ، والركض وراء الشهوات والملذّات وزوايا المتعة والمجون ، إذ نسمعه يناجي ربه قائلاً : « **الهي ، كم من نعمة انعمت بها عليّ قلّ لك عندها شكري ، وكم من بليّة ابتليتني بها قلّ لك عندها صبري ، وكم من معصيةٍ أتيتها فسترتها ولم تفضحني ، فيا من قلَّ شكري عند نعمه فلم يحرمني ، ويا من قلّ صبري عند بلائه فلم يخذلني ، ويا من رآني على المعاصي فلم يفضحني ..** » [١].

وليس تعبيره باصفراره عليه السلام عند وضوئه وحين يقف بين يدي ربّه وقوله : « **أتدرون بين يدي من سأقف ومن سأناجي** » إلاّ إشارة دقيقة وصادقة على هذا التواصل ، أو تعبيراً متيناً عن هذا الشد الرسالي العظيم ...

ومثل ذلك قوله وهو متعلّق بأستار الكعبة ليلا : « **إلهي نامت العيون ، وعلت النجوم ، وأنت الملك الحي القيوم ، غلقت الملوك أبوابها ، وأقامت عليها حراسها ، وبابك مفتوح للسائلين** ... إلى أن ينشد قائلا :

يامن يجيب دعا المضطرّ في الظُلم يا كاشف الضر والبلوى مع السقم

(١) مناقب آل أبي طالب ٤ : ١٧٨.

قـد نـام وفـدك حـول البيـت قاطبـة وأنـت وحـدك يـا قيّـوم لم تـنم
أدعـوك رب دعـاء قـد أمـرت بـه فـارحم بكـائي بحـق البيـت والحـرم
إن كـان عفـوك لا يرجـوه ذو سـرف فمـن يجـود علـى العاصـين بـالنعم [1]

٣ . تذكير الناس بالله تعالى واليوم الآخر ، وإيجاد بدائل لسعادة روحية غيّبها الصراع المادي والسياسي للسلطة الحاكمة ، وخلق أجواء حميمة لعلاقات صادقة وصفاء روحي قائم على الحب في الله والبغض في الله ...

فنجده يجسّد ذلك الشعور في دعائه لجيرانه ومواليه ، وإخوانه العارفين بحقّه فيقول : « **اللهم صلِّ على محمد وآله .. واجعلني اللهمّ أجزي بالإحسان مسيئهم ، وأعرض بالتجاوز عن ظالمهم ، واستعمل حسن الظن في كافّتهم ، وأتولى بالبر عامتهم ، وأغض بصري عنهم عفة ، وألين جانبي لهم تواضعاً ، وأرقّ على أهل البلاء منهم رحمة ، وأسرّ لهم بالغيب مودة ، وأحبُّ بقاء النعمة عندهم نصحاً ، وأوجب لهم ما أوجب لحامّتي وأرعى لهم ما أرعى لخاصتي** » [2].

وهذا يعني أن السعادة الروحية يمكن أن تكون أعمق من السعادة المادّية ، وأن التنافس المحموم على المال يمكن تعويضه بسعادة روحية حميمة تقوم على العلاقات الدافئة الحبيبة بين الإخوان المتحابين في الله

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٤ : ١٦٣ عن الاصمعي اللغوي النحوي صاحب النوادر والملح ، عن الكنى والألقاب ٢ : ٣٧ . ٤٠.

(٢) الصحيفة السجادية الجامعة : ١٣١ دعاء رقم (٦٥).

والمتآخين في حبّ الله ، وبعيداً عن مخالب التنافس المادي وأنيابه وسُعاره ...

٤ . تسفيه أحلام الحكام الاَمويين والتنديد بتكالبهم وتسابقهم على ملذّات الدنيا ، عبر إشعارهم بأن السعادة والكرامة لا يتأتّيان دائماً عبر المال والجاه والسلطة ، وإنّما عبر الزهد والسموّ والترفّع على الدنيا وحطامها ، بل إنّ السعادة الروحية أركز وأمتن ، وأجلّ في نفوس أهلها من السعادة المادية المعروفة.

سأل عبدالملك يوما الامام عليه السلام عن تواصل عبادته وكثرة انشغاله بها ، فأجابه عليه السلام قائلا : « .. **ولولا أن لاهلي عليّ حقاً ، ولسائر الناس من خاصتهم وعامتهم عليّ حقوقاً ، لا يسعني إلاّ القيام بها حسب الوسع والطاقة حتى أؤديها ، لرميتُ بطرفي إلى السماء ، وبقلبي إلى الله ، ثمّ لا أردّهما حتى يقضي الله على نفسي وهو خير الحاكمين** .. » مذكّرا بحديث جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم حين سُئل عن كثرة عبادته وقد غفر الله له من ذنبه ما تقدّم منه وما تأخر ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « **أفلا أكون عبدا شكوراً** »! وقيل : إن عبدالملك بكى وأبكى من كان معه ...

فضلاً عن إشعار أزلام السلطة أو إيهامهم بأنّه لا يعارضهم ولا يبغي غائلة بهم ، علّهم يخففون عنه عيون الشرطة والمرتزقة والمأجورين ...

ولا نرى أنفسنا مبالغين حين نقول : إن ( زبور آل محمد ) جاء مجموعة متماسكة من ذرى رفيعة ينتقل عبرها الداعي من عالم مادي رمادي مظلم إلى عالم معنوي مشرق نوراني شفاف ، يستلهم القارىء من كلماتها وألفاظها ومعانيها ونصوصها آفاقاً جديدة في المعرفة والعرفان ، حتى ليُخيل للمرء أنّها كتلةً نورانية مشعّة تنبعث عنها طاقة هائلة من معانٍ

وإشراقات يفجّرها الامام ببيانه وبلاغته وصدق مناجاته ، ويحشدها حشداً على امتداد أدعية الصحيفة وكلماتها ... وهو يقول : « **إلهي اسكنتنا داراً حفرتَ لنا فيها حُفَر مكْرِها ، وعلّقتنا بأيدي المنايا في حبائل غدرها ، فإليك نلتجيء من مكائد خدعها ، وبك نعتصم من الاغترار بزخارف زينتها ، فإنّها المهلكة طلاّبها ، المُتلفة حُلاّلها ، المحشوّة بالآفات ، المشحونة بالنكبات .. إلهي فزهّدنا فيها وسلّمنا منها بتوفيقك وعصمتك ، وانزع عنا جلابيب مخالفتك ، وتول أمورنا بحسن كفايتك ..** ».

٥ .كان لابدّ للامام وهو يرى انتشار وباء التكالب على الدنيا وشهواتها ، وانتشار ظواهر التحللّ والميوعة والفساد ، أن يبحث عن لقاح مضاد نافع لكبح تيار الانحلال هذا ، وتعليم الناس أن الدنيا ليست كل شيء وإنّما وراءها يوم آخر غيّبته السياسة ، وأنّ ذلك اليوم هو خير وأبقى لمن ألقى السمع وهو شهيد ، فكان عليه السلام يقتنص الفرصة تلو الفرصة لتأكيد هذا المعنى في نفوس الناس.

روي عن الامام الباقر عليه السلام واصفا عبادة أبيه أنّه قال :

« **لم يذكر أبي نعمة لله إلاّ سجد ، ولا قرأ آية فيها سجدة إلاّ سجد ، ولا دفع الله عنه سوء إلاّ سجد ، ولا فرغ من صلاة إلاّ سجد ، ولا وفّق لاصلاح بين اثنين إلاّ سجد ..** » [1].

ويُروى عنه عليه السلام أنّه حين كان يخرج مع الناس في بعض المنازل كان يصلّي ويسبّح في سجوده ، ويبكي حتى تبتلّ لحيته بدموع عينيه وهو يقول : « **يامن تُحلُّ به عُقد المكاره ، ويا من يُفتأ به حدّ الشدائد ، ويا من يُلتمس منه المخرج إلى روح الفرج. ذلّت لقدرتك الصعاب ، وتسبّبت بلطفك**

---

(١) معاني الأخبار / الصدوق : ٢٤.

**الأَسباب ، وجرى بقدرتك القضاء ، ومضت على إرادتك الأَشياء ، فهي بمشيئتك دون قولك مؤتمرة ، وبإرادتك دون نهيك منزجرة ، أنت المدعو للمهمّات ، وأنت المفزع في الملمّات ، لا يندفع منها إلاّ ما دفعت ، ولا ينكشف منها إلاّ ما كشفت ... »** [1].

وغير ذلك من تضرّع ومناجاة وتبتّل ، كانت لها أكبر الآثار في شدّ الناس بالله تعالى وتذكيرهم بعظمته وجبروته ، وتحذيرهم من الكفر به وتجاوز حدوده ... خاصة إذا كان مثالها مصداقا عمليا للدعاء الصادق أو التبتّل الطاهر الذي لا يرجو صاحبه بدعائه وتبتّله ومناجاته إلاّ رضا الله تعالى وتحكيم دينه في دنيا الناس ، رأفةً بهم وحبّاً لهم ، وامتثالاً لقوله عزَّ من قائل : ( فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فاذن لمن شئت منهم واستغفر لهم ان الله غفور رحيم ) [2].

### مضامين دعائه عليه السلام :

وحتى دعائه عليه السلام لم يسلم هو الآخر من النقد والتجريح من قبل السفهاء والمسطّحين ، فبعد أن اعتبره بعضهم إعتزالاً سلبياً ، وانكفاءً وابتعاداً عن هموم الناس وآلامهم ، راح آخرون يؤكدون على الجانب العرفاني فيه فقط ، ناسين أو متناسين أن دعاءه عليه السلام كان في معظمه رسالة مفتوحة ، إلى الناس كل الناس ، بثّ لهم فيها شجونه وأهدافه ورسالته وعلى كلِّ الاطر والاصعدة ، وعلى طريقة ( إياك أعني واسمعي يا جارة ) ...

ولعلنا من قراءة سريعة لسطور وكلمات أدعيته المأثورة نكتشف سِفرا

---

(١) الصحيفة السجادية / الإمام زين العابدين دعاء (٧).

(٢) سورة النور : ٢٤ / ٦٢.

خالدا . سنأتي على ذكر بعض تفاصيله لاحقا . من التربية والتهذيب والتصدي والدعوة إلى الإِصلاح والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة حدود الله واستحضار قيم الدين وتفعيل مضامينه وبث الروح في مواعظه وإرشاداته.

ولم يُخطئ من وصف ( الصحيفة السجادية ) للامام زين العابدين عليه السلام بأنّها ( زبور آل محمد ) ، ولم يُجانب الصواب كثيرا من قرأ الامام السجاد من زاوية التهجّد والعرفان وعلاقته عليه السلام مع السماء فقط ، فلعله عليه السلام أراد بتلك الاَعية .كما قلنا .كبح الانجرار الهابط إلى وحل الاَرض وطينها ، والوقوف أمام التيار المادي الجارف الذي روّجه وعزف عليه وأشاعه الإِعلام الاموي المتلفّع بشعارات الدين زورا وإفكا ...

ومن قراءة سريعة في هذه « الصحيفة الخالدة » يكتشف المرء عمق العلاقة بين الامام زين العابدين وربّه ، وكيف انه غاص في أعماق النفس الانسانية ، وراح يشدّ حبلها بحبل السماء الذي قطعته السياسة الاموية ، ومزّقت أوصاله تداعياتها ، وانحطاط رجالها وتهافتهم على الدنيا وحطامها ..

نعم ، استطاع الامام السجاد عليه السلام بهذا الاتجاه وبسبب الاَجواء الخانقة التي أشرنا إليها تلميحاً أن يترك لنا سفراً خالداً في المناجاة والتبتّل والابتهال ، فأعاد موازنة العقل مع القلب ، والفكر مع الروح ، واستطاع بصدقه ودموعه وشجونه ولوعته أن يرسم لنا لوحةً صادقةً عن العرفان الهادف ، والتصوف الصادق ، والاتصال المسؤول الذي يهفو إلى السماء ولا ينسى الاَرض ، ويسأل الله سعادة أهل الآخرة ، ولا ينسى شقاء أهل الدنيا ، ويطلب رضا الخالق فيما يناشد ضمائر المخلوقين ..

نعم ، جاءت أدعية الامام زين العابدين عليه السلام لمواجهة موجات الرخاء والهبوط التي تعرّض لها المجتمع الاسلامي في بداية الحكم الاموي ، فقام عليه السلام بما امتلكه من بلاغة فريدة وقدرة فائقة على استخدام اللغة ، وذهنية ربانية تفتّقت عن أعذب المعاني وأروعها في تصوير صلة الانسان بخالقه وهيامه به ، وانشداده بالمبدأ والمعاد ، فأوجد من خلال الدعاء فضاءً روحياً عظيماً لابناء المجتمع الإسلامي استطاع بواسطته تثبيت الانسان المسلم وشدّه بالسماء وخاصة حين تعصف به المغريات وتجرّه إلى الارض.

فكان عليه السلام يخطب الناس في مجلسه كل جمعة ، يعضهم ويزهّدهم في الدنيا ، وهو سيد الزاهدين ، ويُرغّبهم في الآخرة وهو أشدّ الراغبين ، ويقرع أسماعهم بتلك اللوحات الفنيّة البالغة التأثير التي مثّلت بحق العبودية الخالصة لله تعالى ، فضلاً عن كونها عملاً اجتماعياً عظيما فرضته ضرورة المرحلة التي كان يمرّ بها ، حتى أضحت تلك الادعية تراثاً ربانياً فريداً للسالكين طريق الله ، ومصدر عطاء وهداية لكلِّ من ينشد الحق ويرغب في معرفة الله حقّ معرفته ، إضافة إلى كونها دروس أخلاق وتهذيب ، سيظل أهل الدنيا ينهلون من معينها العذب ما دام هناك صراع بين قوى الخير وقوى الشرّ ، أو بين مثابات الهدى ومعسكرات الضلال ...

وهكذا نسمعه عليه السلام في فصاحته وبيانه وبلاغته ، له في كل صباح ومساء دعاء ، وله في المهمّات دعاء ، وفي الاعترافات والظلامات دعاء ، وعند المرض والعافية دعاء ، وعند الشدّة والفزع دعاء ، وعند ذكر الموت وسماع الرعد والرهبة دعاء ، وفي استقبال شهر رمضان المبارك وتوديعه دعاء ، وعند ختم القرآن ويوم عرفة وأيام الاسبوع دعاء ودعاء ، وهكذا

في كل موقف وموطن وفي كلّ نبضة قلب ورمشة جفن ، وكأنه قطعة من كيانٍ وجزءٍ من كلّ ، لا ينقطع ولا يكلّ ولا يملّ ، حتى يقول :

« **يا إلهي لو بكيت إليك حتى تسقط أشفار عيني ، وانتحبتُ حتى ينقطع صوتي ، وقمت لك حتى تنتثر قدماي ، وركعتُ لك حتى ينخلع صلبي ، وسجدتُ لك حتى تتفقأ حدقتاي ، وأكلتُ تراب الارض طول عمري ، وشربتُ ماء الرماد آخر دهري ، وذكرتك في خلال ذلك حتى يكلُّ لساني ، ثم لم أرفع طرفي إلى آفاق السماء استحياءً منك ، ما استوجبت بذلك محو سيئة واحدة من سيئاتي ...**

**فارحم يا ربِّ طول تضرّعي وشدة مسكنتي وسوء موقفي ، واستعملني بالطاعة ، وارزقني حُسن الإنابة ، وطهرني بالتوبة ، وأيّدني بالعصمة ، واستصلحني بالعافية ، وأذقني حلاوة المغفرة ، واجعلني طليق عفوك ، وعتيق رحمتك ، واكتب لي أماناً من سخطك ، وبشرني بذلك في العاجل دون الآجل ، إنّك تفعل ما تشاء وتحكم ما تريد ، وإنك على كلِّ شيء قدير ... ».**

إذن ، وباختصار شديد وبكلمات أكثر تفصيلاً يمكن القول ان الصحيفة السجادية التي تركها الامام زين العابدين عليه السلام جاءت لتشكّل مساحة منهجية رائدة وكبيرة ، بكبر القضية التي انتُدب لها أولاً ، وبحجم دوره عليه السلام في ريادة هذه القضية وتوجيهها وتعميقها في نفوس الناس ثانيا.

نعم ، جاءت هذه الصحيفة لتكون شوطاً آخر من أشواط الجهاد الذي قطع مشواره المرّ الطويل هذا الامام العظيم في تبيئة المفهوم الإسلامي .كما يقولون اليوم . وتأصيل جذوره في الأُمّة والمجتمع بعدما انكمش دوره في دائرة القوالب المشوّهة التي صاغها الأمويون ، وداسوا القيم

العظيمة التي جاء من أجلها بل لأجلها النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ، واستشهد لأجلها سيد الشهداء عليه السلام .

جاء الامام السجاد في صحيفته هذه ليمزج العاطفة بالوجدان ، والقلب بالعقل ، ويحمل الجميع إلى الحقيقة الإلهية المتعالية بلا رتوش أو أصباغ أو قوالب يتماهى معها أدعياء هذه الحقيقة فيستغرقون ويُغرقون الناس معهم في مفاهيم غائمة لا مصاديق لها ، أو يغوصون في عبارات سائبة عائمة لا تستقر في قعر ولا تركن إلى حصن منيع.

ونكتفي بالإشارة ، والإشارة فقط إلى بعض مضامين دعائه التي لم تحلّق في السماء فقط ، وإنّما نزلت إلى الأرض تقارع الظالمين وتنتصر للمظلومين ، تستنهض الهمم وتدعو لتحكيم دين الله ، ولم تكتفِ ، بل لم تجنح إلى « التهويمات » التي يطير فيها بعض المتصوفين ممن لا علاقة لهم بالناس ، ولا وشيجة لهم مع أُمّة أو مجتمع ...

وسنتناول فيما يلي ثلاثة مضامين تناولها الامام عليه السلام وسعى إلى ترسيخها في أذهان الأُمّة ، وقد تمثّلت في العقائد والأخلاق وأخيراً المضمون العبادي الذي يعطي العبادة دورها الفعّال والحيوي في إحياء المجتمع وتزكيته ، وهذه تُعدُّ من أهم ركائز المجتمع الإسلامي :

### ١ . المضامين العقائدية :

ولعلَّ أول ما يطالعنا في هذا السفر الخالد هو قدرة الامام زين العابدين عليه السلام الفائقة على تجسيد العلاقة بين العبد وربّه ، أو بين الخالق والمخلوق ، وباسلوب أدبي رفيع ومناجاة عذبة صادقة يصدق أن يُقال فيها ما قيل في أقوال جدّه علي بن أبي طالب عليه السلام أنّها تحت كلام الخالق

وفوق كلام المخلوق فعلا ..

لنستمع قليلا إلى بعض ما جاء في هذه الاَعية : « **الحمد لله الذي خلق الليل والنهار بقوته ، وميّز بينهما بقدرته ، وجعل لكلٍّ واحدٍ منهما حدّاً محدوداً وأمداً ممدوداً ... اللهمَّ فلك الحمدُ على ما فلقت لنا من الإصباح ، ومتّعتنا به من ضوء النهار ، وبصّرتنا فيه من مطالب الأقوات ، ووقيتنا فيه من طوارق الآفات ...** ».

ويرسم الامام لنا لوحة أُخرى عن عظمة الخالق سبحانه ، وكيف أنّه جلَّ وعلا أكبر ، ولكنّه أكبر من كلِّ كبير ، وليس أكبر من كلِّ صغير ، وأنّه عزَّ وجلَّ أعلى ، ولكنّه أعلى من كلِّ عال أو متعال وليس أعلى من كلِّ مسكين واطىء ضعيف ...

فيقول عليه السلام : « **الحمدُ لله الذي تجلّى للقلوب بالعظمة ، واحتجب عن الأبصار بالعزة ، واقتدر على الأشياء بالقدرة ، فلا الأبصار تثبُت لرؤيته ، ولا الأوهام تبلغ كنه عظمته. تجبّر بالعظمة والكبرياء ، وتعطّف بالعز والبر والجلال ، وتقدّس بالحُسن والجمال ، وتمجّد بالفخر والبهاء ، وتهلل بالمجد والآلاء ، واستخلص بالنور والضياء. خالق لا نظير له ، وواحد لا ندّ له ، وماجد لا ضدّ له ، وصمد لا كفو له ، وإله لا ثاني له ، وفاطر لا شريك له ورازق لا معين له ، والأول بلا زوال ، والدائم بلا فناء ، والقائم بلا عناء والباقي بلا نهاية ، والمبدئ بلا أمد ، والصانع بلا ظهير ، والرب بلا شريك .. ليس له حدّ في مكان ، ولا غاية في زمان ، لم يزل ولا يزول ولن يزال ، كذلك أبداً هو الإله الحي القيوم الدائم القديم ..** » [1].

أما توحيد الباري جل وعلا فإن الامام عليه السلام يصبّه في قالب دعاء يوجّه

---

(١) الصحيفة السجادية الجامعة : ٢١ و ٢٥ / الدعاء ٢ و ٧.

من خلاله الإنسان بهدوء وبساطة إلى وحدانية الله تبارك وتعالى من خلال استقراء ظواهر طبيعية حسيّة هي مع الإنسان في وجوده ، يحملها معه في كلّ آن ، ولا يستغني عنها لحظة ..

فيقول في ذلك : « **إلهي بدت قدرتك ولم تبدُ هيئة جلالك ، فجهلوك وقدّروك بالتقدير على غير ما أنت به ، شبهوك وأنا بريء يا إلهي من الذين بالتشبيه طلبوك ، ليس كمثلك شيء إلهي ولم يدركوك ، وظاهر ما بهم من نعمة دليلهم عليك لو عرفوك ، وفي خلقك يا إلهي مندوحة عن أن ينالوك بل ساووك بخلقك ، فمن ثمَّ لم يعرفوك ، واتخذوا بعض آياتك ربّاً ، فبذلك وصفوك ، فتعاليت يا إلهي عمّا به المشبّهون نعتوك** » [1].

### ٢ . المضامين الأخلاقية :

لاشك أن المتدبّر في أدعية الصحيفة السجادية سوف يجد آثارا واضحة تتركها مجمل أدعيته عليه السلام على طبيعة سلوكه بشكل عام. فإنّه عليه السلام قد ضرب أروع الأمثلة في الخلق الإسلامي الرفيع ، وجسّد الشخصية الإسلامية المثالية ..

وهكذا سعى عليه السلام إلى الارتفاع بالنفس المؤمنة في مدارج الكمال عبر بلورة المفاهيم الأخلاقية التربوية من خلال نسجهما بشكل دعاء فيه من الضراعة والخشوع لله تعالى واستمداد العون منه في شحذ النفس بالتعلق بأخلاق السماء ، والتعالي عن كل وضيع ، والارتفاع عن كلّ دنيء.

ولقد أرسى الامام عليه السلام عبر أدعيته في مختلف مظانها مناهج التغيير الذاتي ، بمحاكاته العقل والوجدان الإنساني وتربيتهما رسالياً ، وهذه

---

(١) الصحيفة السجادية الجامعة : ٢٢ دعاء (٣).

مهمة الأَنبياء والمصلحين الإلهيين الكبار ، فهي إلى جانب شدّ الإنسان وربطه بالسماء ، تجعله في الأَرض بؤرة خير ورحمة ، شديد البأس في ذات الله لا يرضى بظلم ، ولا يرضخ إلى باطل ، قوي العزيمة ، وإنّك لتلمس هذا المنهج بين ثنايا دعائه عليه السلام في مكارم الأَخلاق ومرضي الأَفعال ..

ففي هذا الدعاء ـ مثلا ـ نلتقي بقوله عليه السلام وهو ينشدُّ إلى أعماق الأَرض ، بقدر انشداده إلى آفاق السماء ، ويغوص في عمق الإنسان فيما هو غارق في عمق العرفان ، فنسمعه يقول : « **وأجر للناس على يدي الخير ، ولا تمحقه بالمنّ ، وهب لي معالي الأَخلاق ، واعصمني من الفخر. اللهمَّ صلِّ على محمد وآل محمد ولا ترفعني في الناس درجة إلا حططتني عند نفسي مثلها ، ولا تُحدث لي عزّاً ظاهراً إلاّ أحدثت لي ذلّةً باطنةً عند نفسي بقدرها ..** ».

فالكلمات التي يعرضها الامام السجاد عليه السلام هنا ـ كما في غيرها ـ تعبر تعبيرا دقيقا عن منهج سلوكي عظيم غارقٍ في الشفافية والروح من جهة ، ومستغرقٍ في الفكر والواقع من جهة أُخرى ، فكما أنّه ارتباط عاطفي شديد الصلة متين الانشداد بربِّ العزّة تبارك وتعالى ، ولكنّه من زاوية اخرى عميق الغوص في الجانب التربوي والأَخلاقي والمعرفي الذي لايكتفي صاحبه خلاله بالعرفان المجرّد و ( تهويماته ) الجميلة ، بل يسحبه إلى الواقع المعاش بكلِّ تفاصيله وخيوطه ونسيجه المعقّد.

« **ولا ترفعني في الناس درجة إلا حططتني عند نفسي مثلها** » وهذه أسمى وأرفع سبل تربية الذات ، ودحض الأَنا ، وتجاوز الكبر ، والإجهاز على كل أشكال الغرور والهوى والغطرسة الذاتية.

وبكلمة أُخرى استطاع الامام السجاد عليه السلام بهذه العبارة أن يواجه بُعدين ، كلّ منهما سيف ذو حدّين : بُعد الذات التي هي ألدُّ أعداء المرء [1] من جهة ، وهي كرامته وكبرياؤه وعزّته من جهة أُخرى ، وبُعدُ الناس الذين هم ميزان العلاقة ومعيار إنسانية الإنسان من جانبٍ ، وهم الهمج الرعاع الذين يصعب إرضاؤهم وربما يستحيل [2] من جانب آخر ...

وهذا يعني أنّه لم يختفِ أو يحاول الاختفاء ، وراء النص ، كما يفعل الكثيرون ، ولم يحاول التخلّق بأخلاقٍ عالية ربما يكون شعارها النص ومضمونها المخاتلة به والتماهي معه ، وإنّما أراد أن يكون شعاره وخلقه ، نصّه ومضمونه ، متوازنين لا تطغى فيه كفّة على أُخرى ، ولا زعم على واقع ، أو واقع على ادّعاء.

وهكذا ، ومن هذا النص وغيره ، وكما يقول بعض المحللين لشخصية الامام السجّاد عليه السلام ، إنّه استطاع في الظروف العصيبة التي عاشها عليه السلام أن يوظّف كل الجهود الممكنة وفي منهج إحيائي حركي لتعميم الثقافة الإسلامية المطلوبة ، وإشاعة التفكير الإسلامي السليم ، أي عبر الدعوة للتفكير الصحيح من خلال الدعاء الذي ورد في هذه الصحيفة التي تنوّعت أبعاده وتعددت آفاقه ليشكل بمجموعه منهجا كاملا يأخذ طابع المدرسة الشاملة والثقافة الشمولية المتكاملة التي تملأ كل الفراغات وتغطي كل الثغرات في جسم المجتمع الإسلامي والنموذج المسلم.

فهو ، من جانب ، يغوص في أعماق النفس الإنسانية مدغدغا أدق نوازعها محللا بواطنها ومكنوناتها ، كاشفاً لشططها وطيشها وشطحاتها

---

(١) كما روي في الحديث الشريف : « ألدُّ أعداء المرء نفسه التي بين جنبيه ».

(٢) ( رضا الناس غاية لا تدرك ).

« **لا ترفعني ... إلا حططتني ...** » وهو من جانب آخر يسعى إلى توضيح وتيسير المفاهيم الإِسلامية العامّة ، وبالتالي استيعاب حاجات الفرد المؤمن المادية والروحية ، وصولاً لاحتواء متطلبات المجتمع المسلم المادية والروحية أيضاً ، وبدون ابتسار أو تعسف أو اختزال ..

وهكذا في العشرات بل المئات من المقطوعات المأثورة والبيانات الصريحة التي تعبر عن اندكاكه بهموم الأُمّة ولوعته في مناشدة الضمائر الحيّة لمقارعة أهل الظلم والجور أياً كانوا وحيثما وجدوا.

فمما روي عنه عليه السلام قوله : « **يامن اتقيتم سلطان الأرض ، ألا تتقون سلطان السماء؟ يامن أرهبكم عذاب الدنيا ، ألا ترهبون عذاب الآخرة ، إذ الاغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون؟** ».

« **أتخشون ملكاً تعصونه مرّة ولا تخشون ملك الملوك ، وأنتم في كلّ يوم له عاصون؟** ».

« **اللهمَّ من تهيأ وتعبأ واستعد لوفادة إلى مخلوق رجاء رفده ونوافله وطلب نيله وجائزته ، فإليك يامولاي كانت اليوم تهيئتي وتعبئتي وإعدادي واستعدادي رجاء عفوك ورفدك وطلب نيلك وجائزتك ...** » [1].

### ٣ . المضمون العبادي :

ومما يؤكد حرص الامام على إنزال الدعاء من السماء إلى الأَرض ، وشدّه بين واجبات الإِنسان على الأَرض وتطلّعه نحو السماء ، إنّه لم ينفكّ يدعو إلى التواصل والجمع بينهما من أجل توفير الحالة الدينية

---

(١) الصحيفة السجادية الكاملة ، دعاؤه يوم الأَضحى ويوم الجمعة.

المسؤولة ، وتعبئة الأُمّة لحفظ هذا التواصل وإذكاء جذوته وإبقائه في نفوس الناس ...

فلا يكاد المرء يستمع إلى مواعظه إلاّ ويستشعر نكهتها التربوية والاجتماعية والسياسية ، ودورها في تهذيب النفوس وتنقيتها ، فهي من جانب تدعو إلى التسامي والترفّع ، ومن جانب آخر إلى التصدّي للظالمين والثورة عليهم ، وتؤكد كذلك على مسؤولية الإنسان في هذه الحياة الدنيا ودوره فيها .. الأمر الذي يعطي العبادة دورها في إحياء المجتمع والفرد من خلال فتح الأبواب إلى مضامينها وأهدافها التي قد لا يدركها إلا القليل ممن تذوّق روح الشريعة الإسلامية وأبصر أبعادها.

يقول عليه السلام وعلى سبيل المثال لا الحصر :

١ . « **أصبحت مطلوبا بثمان : الله يطالبني بالفرائض ، والنبي بالسُنّة ، والعيال بالقوت ، والنفس بالشهوة ، والشيطان باتّباعه ، والحافظان بصدق العمل ، وملك الموت بالروح ، والقبر بالجسد .. فأنا بين هذه الخصال مطلوب ...** » [١].

٢ . « **أيُّها المؤمنون لا يفتننكم الطواغيت وأتباعهم من أهل الرغبة في الدنيا ، المائلون إليها ، المفتونون بها ، المقبلون عليها ، احذروا ما حذّركم الله منها ، وازهدوا في ما زهّدكم الله فيه منها ، ولا تركنوا إلى مافي هذه الدنيا ركون من أعدّها دارا وتوهّمها قرارا ...** » [٢].

٣ . وقال عليه السلام واصفاً أهل الدنيا ، مصنّفاً لهم : « **الناس في زماننا ست طبقات : أُسد وذئاب وثعالب وكلاب وخنازير وشياه : فأما الأُسد فملوك**

---

(١) أمالي ابن الشيخ : ٤١٠.

(٢) تحف العقول : ٢٥٢.

**أهل الدنيا ، يحبّ كلّ واحدٍ منهم أن يَغلِب ولا يُغلَب ، وأما الذئاب فتُجّاركم يذمّون إذا اشتروا ، ويمدحون إذا باعوا ، وأما الثعالب فهؤلاء الذين يأكلون بأديانهم ، ولا يكون في قلوبهم ما يصفون بألسنتهم ، وأما الكلاب فيهرّون على الناس بألسنتهم ، فيكرمهم الناس من شرّها ، وأما الخنازير فهؤلاء المخنّثون وأشباههم لا يُدعون إلى فاحشة إلا أجابوا ... ، أما الشياه فهم المؤمنون الذين تجزّ شعورهم ، وتؤكل لحومهم ، وتُكسر عظامهم ... ».**

ثم يتساءل متوجّعا متألما مشفقا على المؤمنين : « **فكيف تصنع الشاة بين أسد وذئب وثعلب وكلب وخنزير ...** » [1].

ويقول مخاطبا أصحابه وشيعته :

٤ . « **... أيُّها الناس ، اتقوا الله ، واعلموا أنكم إليه راجعون ، فتجد كلّ نفسٍ ما عملت من خير محضرا ... ويحذّركم الله نفسه ... ويحك ابن آدم ، إن أجلك أسرع شيء إليك ، ويوشك أن يدركك ، فكأنك قد أوفيت أجلك ، وقد قبض الملك روحك ، وصُيّرت إلى قبرك وحيداً ... فان كنت عارفاً بدينك متّبعاً للصادقين ، موالياً لأَولياء الله ، لقّنك الله حجتك ، وأنطق لسانك بالصواب ، فأحسنت الجواب ، وبُشّرت بالجنّة والرضوان من الله ، واستقبلتك الملائكة بالروح والريحان ، وإن لم تكن كذلك تلجلج لسانك ، ودُحضت حجتك ، وعييت عن الجواب وبُشرت بالنار ، واستقبلتك ملائكة العذاب بنُزُلٍ من حميم ، وتصلية جحيم ..** » [2].

ولعل أروع مادوّنه الامام السجاد في معرفة النفس الإنسانية وسبره

---

(١) الخصال للشيخ محمد بن علي الصدوق : أبواب السنة ، الحديث الأخير فيها.

(٢) تحف العقول : ٢٤٩ ـ ٢٥٢. وأمالي الطوسي : ٣٠١. وروضة الكافي : ١٦٠. وأمالي الصدوق : ٣٥٦.

أغوارها وتفريقه بين زيفها وصدقها ، وكشفه الفاصلة بين الواقع والادعاء ، والظاهر والباطن ، هو المقطوعة البليغة التالية :

٥ . « **إذا رأيتم الرجل قد حسُنَ سمتُه وهديه ، وتمادى في منطقه وتخاضع في حركاته ، فرويداً لا يغرنكم ، فما أكثر من يعجزه تناول الدنيا وركوب الحرام فيها ، لضعف بنيته ومهانته وجبن قلبه ، فنصبَ الدين فخاً له ، فهو لا يزال يُختل الناس بظاهره ، فإن تمكن من حرام اقتحمه ، وإذا وجدتموه يعفّ عن المال الحرام فرويداً لا يغرّنكم ، فإنّ شهوات الخلق مختلفة ، فما أكثر من يتأبّى من الحرام وإن كثر ، ويحمل نفسه على شوهاء قبيحة ، فيأتي منها محرماً ، فإذا رأيتموه كذلك ، فرويداً حتى لا يغرّنكم عقده وعقله ، فما أكثر من ترك ذلك أجمع ثم لا يرجع إلى عقل متين ، فيكون ما يفسده بجهله أكثر مما يصلحه بعقله ... فإذا وجدتم عقله متينا فرويدا لا يغرنكم حتى تنظروا أيكون هواه على عقله ، أم يكون عقله على هواه؟ وكيف محبته للرياسة الباطلة وزهده فيها؟ فإن في الناس من يترك الدنيا للدنيا ، ويرى لذّة الرياسة الباطلة أفضل من رياسة الاموال والنعم المباحة المحللة ، فيترك ذلك أجمع طلباً للرياسة ، حتى إذا قيل له اتق الله أخذته العزّة بالاثم فحسبه جهنم وبئس المهاد ... فهو يحلّ ما حرم الله ، ويحرم ما أحلَّ الله لا يبالي ما فات من دينه إذا سلمت له الرياسة التي قد شقي من أجلها ، فاولئك الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم عذابا أليما ... »** [1].

هكذا كان الامام عليه السلام في تشخيصه لنوازع وزوايا النفس البشرية المعتمة .. وهكذا كان دعاؤه وعبادته ومواعظه .. غوص بارع في العمق ،

---

(١) تنبيه الخواطر : ٣١٦. والاحتجاج ٢ : ١٧٥.

وتضميد هادىء للجرح ، اشارة دقيقة مركّزة هنا ، واسترسال هادف هناك ، ينتزع أدقّ الاشواك ، ويداعب أغلظ الاوتار ، ويقطع الطريق على أكثر المرائين قدرةً على التمثيل والتنطّع والرياء ..

## الفصل الرابع

## فلسفة الإمام عليه السلام في الانفاق وتحرير العبيد

كان الرق نظاما متّبعا قبل الإِسلام وجاء الإِسلام لعلاجه واجتثاثه ( فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فك رقبة ) [1] ، كما أنّه كان نتيجة طبيعية للفتوحات الإِسلامية ووقوع الآلاف من أبناء البلدان المفتوحة أسرى بأيدي المسلمين ، الأمر الذي لابدّ منه لمساومة حكّام البلدان الأُخرى على تحرير أسرى المسلمين .. فضلا عن كونه حالة طبيعية في الوسط الاجتماعي آنذاك ...

فقد قيل إن الزبير بن العوّام مثلا كان يملك ألف عبد وألف أمة [2] ، وإن عملية فتح واحدة للمسلمين ، كان فيها نصيب الدولة الإِسلامية من العبيد ستين ألفاً ، وإن امرأة واحدة من المسلمين اشترت خمسمائة عبد [3] ، إذ كان العبد الواحد يُباع أحياناً بقبضة من فلفل المطبخ ... [4].

ولما كان هؤلاء العبيد يشكّلون شريحة اجتماعية مهمة يُنظر إليها نظرة ازدراء ودونية طبعا ، وكان معظمهم لا يستطيع التمرد على سيده بحكم

---

(١) سورة البلد : ٩٠ / ١٣.

(٢) فجر الإِسلام / أحمد أمين : ٩٠.

(٣) الإِمامة والسياسة : ١٣٧ فصل الفتوحات . القسم الثاني . السجاد.

(٤) الإِمامة والسياسة ، فتح الاندلس وشمال أفريقيا ...

النظام الاجتماعي القائم ، ولا يجد بدّاً من العمل معه أوله مقابل لقيمات يسدُّ بها رمقه ، أو أمانٍ يحفظ له حياته ، من خلال انتمائه لهذا البيت أو هذا الرجل ، كان على الإمام زين العابدين أن يتعامل مع الظاهرة من موقع المسؤولية ؛ إذ عليه أولا أن يُعاملهم كبشر لا يختلفون عن غيرهم في طموحاتهم وتطلعاتهم وآمالهم ، وأيضاً في تطلعاته هو عليه السلام لكسب ودّهم وتربيتهم وزرع القيم الرسالية في نفوسهم ...

وحين كان الواحد من هؤلاء يُخاطب بكلمة « يا عبدي ويا أمتي » كان عليه السلام يخاطبهم « يا فتاي ويا فتاتي » ؛ إذ كان يرى فيهم رصيدا اجتماعيا مؤثرا لنشر الإسلام وقيمه وتعاليمه ...

### هدف الإمام عليه السلام من التعامل مع الظاهرة :

ومن هنا كان رأي الإمام أن يتعامل معهم وفق الأُسس التالية :

١ . التأكيد على قيم الإسلام في نظرته إلى البشر بأنهم جميعاً لآدم وآدم من تراب .. ( يا أيُّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأُنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ) وأن : « **الناس سواسية كأسنان المشط** » وأنه « **لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى** » و « **لا فضل لابن البيضاء على ابن السوداء إلا بالحق** » وأن « **الناس صنفان : إمّا أخ لك في الدين ، أو نظير لك في الخلق** » ، وبالتالي فإنّ على الإمام عليه السلام تجسيد هذه المثل النبيلة في التعامل مع أولئك العبيد ورعايتهم وتربيتهم وأخيراً تحريرهم ، أي عتقهم ، وبثّهم في ربوع العالم الإسلامي لأداء الأمانة وتبليغ الرسالة ...

٢ . تربية المسلمين وحثّهم على إنهاء هذه الظاهرة غير المدوحة عبر تشجيعهم على شراء العبيد وعتقهم ، وكل ذلك بعد تأكيده على عدم

التعالي عليهم ومعاملتهم معاملة إنسانية ، أي بآدمية ورفق كما هو شأن القيم الإِسلامية في النظر إلى الضعيف أو المستضعف ممّن لا مال لديه ولا أهل ولا عشيرة ..

٣ . السعي إلى زجّ هؤلاء العبيد في المجتمع من خلال تبنّيهم ورعاية شؤونهم واحتضانهم واجتثاث عقدة النقص من نفوسهم ، وكذلك اجتثاث جذور الفوقية والعرقية من نفوس أسيادهم بغية استثمار المؤهلين منهم في الوسط الاجتماعي كقادة ومربين ومبلّغين ، فضلاً عن هدف الإِمام العظيم لمواجهة الحالة العنصرية التي أوجدتها السياسة الأَموية في التفريق بين العرب والموالي أو تفضيل العرب على غيرهم ، باعتبارهم ( مادة الإِسلام ) كما زعموا ، أو زعم بعضهم.

وهكذا فقد أوجد الإِمام السجاد عليه السلام تشكيلاً أو وجوداً اجتماعياً مؤثراً ، كان يحترم الإِمام ويكنّ له كل ألوان التقدير والإِعتزاز والحبّ ، وخاصة حين تأتي تفاصيل تلك المعاملة الأَخوية من السموّ والمثالية مابقي يُذكر على امتداد الدهور والإِ َمان ..

### التربية العالية والخلق الرفيع :

كان عليه السلام يُعامل عبيده كأخوة وأصدقاء وأبناء ، وكان يجالسهم ويؤاكلهم ويمازحهم ويزوّجهم ، ويزرع فيهم الثقة والاعتزاز بالنفس وبالدين.

ومن مصاديق ذلك قصته مع خادمه الذي استعجل بشواء جاء به إليه لضيوفه ، وسقوط سفود الشواء على رأس طفل له وقتله في الحال ، وحين رأى الإِمام تغيُّر حال الغلام واضطرابه عاجله بقوله : « **لا عليك .. إنّك لم**

**تتعمّد قتله ، وأنت حرّ لوجه الله** » وأخذ في جهاز ولده ودفنه [1] ، فإنّها قصة تعبّر عن تسامٍ رفيع ومناقبية عظيمة راحت حكاية للاجيال.

وقصته الأُخرى مع جارية له كانت تحمل له إبريقاً ، إذ سقط الابريق من يدها ليشجّ وجه الامام ويسيل دمه ، وحين اضطربت ، معتذرة إليه قائلة ( والكاظمين الغيظ ) قال لها : « كظمت غيظي » فقالت : ( والعافين عن الناس ) قال : « عفا الله عنك » فقالت : ( والله يحب المحسنين ) قال « أنت حرّ لوجه الله » [2].

هذه القصة هي الأُخرى جاءت في سياق هذه التربية الرسالية الهادفة لذلك الغرض النبيل ، وهو تعليم الناس دين الله وأخلاق الإسلام ، والتثقيف بثقافة القرآن.

أقول : إنّ هذه التربية السامية والخلق الرفيع كانا يسريان في نفوس عبيد الامام وإمائه ، بحيث صار عليه السلام يوماً إلى بستان له كان بعهدة أو تحت حراسة أحد غلمانه ، ذهب الامام إلى ذلك البستان يحمل معه طعاماً للحارس ، فأعطى الامام الطعام للغلام وتنحّى جانبا يراقب من بعيد ، كان للغلام كلب واقف قريباً منه والغلام يأكل والكلب ناظر إليه ، وحين شاهده راح يأكل لقمةً ويعطيه لقمة حتى انتهى من طعامه ، وحين فاجأه الامام أن الطعام كان له وليس لكلبه ، جاء جوابه : ( والله يا ابن رسول الله إني استحييت أن آكل أمامه وهو دالع لسانه ينظر إلى الطعام ولا أشاركه أو يشاركني .. ). هذا مع الكلب ، فكيف مع الناس!! وروايات وحكايا ومواقف كثيرة أُخرى من هذا القبيل ...

---

(١) بحار الأنوار ٤٦ : باب ٥ . ٨١.

(٢) سيرة الائمة الاثني عشر / هاشم معروف الحسني : ١٥٥.

وكما كان عليه السلام يرتعد من خشية الله أثناء عبادته إذ كان يصفّر وجهه إذا توضّأ للصلاة . كما يذكر الرواة . وهو يقول : « **أتدرون من سأُناجي بعد قليل وأمام من؟ وبين يدي من سأقف؟!** » [1].

وكما يُروى عن حريق شب يوما في داره وحين قيل له : النار النار يا ابن رسول الله ، لم يكترث حتى أُطفئت فقيل له : ما الذي ألهاك عن النار؟ قال : « **ألهتني النار الكبرى** » [2].

أقول : كما كان الامام كذلك في تجسيده لخشية الله وذوبانه في حبّ ربِّ العباد ، كان تجسيده لحبّه لعبيده ورفقه بهم بعيداً عن التمظهر والافتعال والادّعاء أو الرياء ...

تذكر الروايات أنه عليه السلام تفقّد يوماً ضيعةً له ، فوجد أنّه أصابها فساد كبير بسبب إهمال غلامه لها وعدم اكتراثه لرعايتها ، فغضب لذلك وقرع المولى بسوط كان في يده .. وما أن استرجع حتى ندم على قرعه الغلام ، فاعتذر منه وأعطى السوط للغلام ليقتصّ منه ، فأبى الغلام ، بل راح يقبّل يد الامام ، فقال له عليه السلام : « **أما إذا أبيت ، فالضيعة صدقة عليك ، وأعطاها إياه ...** » [3].

وضرب يوماً غلاماً تباطأ في عملٍ أرسله لإنجازه ، فقال له الغلام تبعثني في حاجتك ثم تضربني! فبكى الامام وقال له في الحال « **يا بني اذهب إلى قبر رسول الله فصلِّ ركعتين ثم قُل : اللهم اغفر لعلي**

---

(١) سيرة الائمة الاثني عشر : ١٦٠.

(٢) مختصر تأريخ دمشق ١٧ : ٣٣٦ / ١٣٤. وسير أعلام النبلاء ٤ : ٣٩١ ـ ٣٩٢ / ١٥٧. ومناقب آل أبي طالب ٤ : ١٤٧ ـ ١٤٨.

(٣) البحار ٤٦ : باب ٥ ـ ٨٥.

**بن الحسين خطيئته يوم الدين** » ثم قال : « **اذهب أنت حرٌّ لوجه الله .. »** [1].

ومثل ذلك الكثير الكثير ، ولم يكن الإمام بهذه المواقف أو المناقبية الفريدة ، يريد تسجيل لوحات استهلاكية للتشدّق والرياء ، ولم يكن يرغب في تدوينها للتسويق السياسي والتجارة ، وإنّما كانت سجيّته هكذا ، بل كانت أخلاقه ملكة لم يستطع أكثر أعدائه خصومةً له ، تسجيلها عليه على أنها نوازع خاصة لأهداف مبيّتة يرغب في تسويقها من أجل اكتساب السمعة أو الشهرة أو توسيع دائرة المعجبين والمحبين ، كما يفعل الكثيرون.

ولعلَّ ( صدقة السر ) المنسوبة له عليه السلام تجسيد مثالي رائع لهذه الملكة الخالدة والسجية العظيمة ، فكان يسمى ( صاحب الجراب ) ؛ إذ كان يقصد بجرابه فقراء المسلمين ليلا ملثماً ، فيقرع أبوابهم باباً باباً ليضع ما يضعه أمامها في جوف الليل من طعام أو صرّة مال ، ولم يكن ليعرف المسلمون ( صاحب الجراب ) هذا حتى مات عليه السلام حيث كشف بعض خواصه كلمته الخالدة : « **إنّ صدقة السرّ ، أو صدقة الليل تطفيء غضب الرب** » لتبقى شعارا خالدا ينلدّ بالمرائين وتجار السياسة وعشّاق الوجاهة والرئاسة وشُرّاء الذمم والأصوات ..

منقبة أُخرى ، بل مناقبية أُخرى ، تكشف هذه السجية في شخصيته ، خلاصتها أنه عليه السلام كان يحصي على عبيده أخطاءهم في شهر رمضان ، ويسجّل ذلك عليهم دون علمهم ، ودون أن يعاقبهم أو يُقرّعهم أو يحاسبهم حتى إذا جاء عيد الفطر جمعهم ، وأخذ يذكّرهم بأخطائهم وذنوبهم أثناء الشهر الكريم مع تحديد الوقت والخطأ الذي ارتكبه كل

---

(١) البحار ٤٦ : باب ٥ . ٥٩.

**منهم ، وحين يتذكّر المخطيء منهم فعلته أو خطأه ويعترف بذنبه ، يعفو عنه ويطلب منه أن يدعو له بالمغفرة والعتق من النار كما عفا هو عنه أو عنهم ، ثمّ يعتقه أو يعتقهم أحراراً لوجه الله وهو يردّ وهم جميعا يرددون معه وبصوت ودعاء ملائكي حزين : « ربّنا أمرتنا أن نعفو عمن ظلمنا وقد عفونا كما أمرت ، فاعفُ عنا .. ربنا وأمرتنا ألا نرد سائلا عن أبوابنا وقد أتيناك سُؤّلا ومساكين ، وقد أنخنا بفنائك وببابك نطلب نائلك ومعروفك وعطائك ، فامنُن بذلك علينا ولا تخيّبنا ..**

**نسألك اللهمَّ بالمخزون من أسمائك وبما وارته الحجب من بهائك إلا رحمت هذه النفس الجزوعة وهذه الرّمّة الهلوعة التي لا تستطيع حرّ شمسك ، فكيف تستطيع حرّ نارك ، والتي لا تستطيع صوت رعدك ، فكيف تستطيع صوت غضبك .. ».**

ثم يُقبل عليه السلام على عبيده فيقول لهم : **« قد عفوتُ عنكم ، فهل عفوتم عنّي مما كان مني إليكم من سوء ملكي؟ فإنّي مليك سوءٍ ، لئيم ظالم ، مملوك لمليك كريم جواد عادل محسن متفضّل .. ».**

فيقولون : قد عفونا عنك يا سيدنا وما أسأت فيقول لهم قولوا : **« اللهمَّ أعف عن علي بن الحسين كما عفا عنا ، فاعتقه من النار كما أعتق رقابنا من الرقِّ ... ».**

ثم يقول : **« اللهمَّ تولّني في جيراني بإقامة سنّتك والاخذ بمحاسن أدبك في إرفاق ضعيفهم وسدّ خلّتهم ، وتعهد قادمهم ، وعيادة مريضهم ، وهداية مسترشدهم ، ومناصحة مستشيرهم ، وكتمان أسرارهم ، وستر عوراتهم ، ونصرة مظلومهم ، وحُسن مواساتهم بالماعون ، والعود عليهم بالجدّ والأفضال وإعطائهم ما يجب لهم قبل السؤال .. ».**

وهكذا ، مما لا عدّ له ولا حصر في إحصاء زوايا النفس الإِنسانية والتنقيب عن مكنوناتها النبيلة في حبّ الآخرين والرفق بهم والعطف عليهم و ( مواساتهم بالماعون ) ـ لاحظ الدقة ـ ونُصحهم والانتصار لمظلومهم وتعهّد قادمهم وما ذكره وردّه ومازالت تذكره وتردده الأجيال جيلا بعد جيل رغم تعاقب الدهور والعصور ..

وأكثر من ذلك ، أنه عليه السلام كان يعجبه أن يحضر طعامه اليتامى والاضرّاء والزمنى ( أي أصحاب العاهات المزمنة ) والمساكين الذين لا حيلة لهم ، وكان يناولهم الطعام بيده محبّاً مشفقاً متوداً ، أما من كان له عيال ، فكان يحمل له من طعامه إلى عياله ، وإذا أتاه سائل يسأله كان يجيب : « **مرحبا بمن يحمل زادي إلى الآخرة** » [1] ، مذكّراً بمقولة جدّته الزهراء عليها السلام ومجسّداً لمواقفها العظيمة مع من كان يطرق بابها من الفقراء ، فلا تردّهم ، رغم حاجتها وحاجة أطفالها ، بل كانت تقول : « **كيف أردُّ الخير وقد طرق بابي ، أو نزل ببابي** » [2].

### سياسة الإِنفاق :

أما عن الانفاق فلم يكن عليه السلام يفكك بين الروح والمادة ، وبين الحقوق والواجبات ، وبين متطلبات الجسم وتحليقات الروح ، بل كان يجسّد المثال الاروع في الانفاق من خير ما يحب المرء ، وكان دائماً يردد كلام الله جلَّ وعلا : ( لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ) [3].

---

(١) المجالس السنية ٥ : ٤٢٢.

(٢) بحار الأنوار ٤٣ : ٧٣.

(٣) سورة آل عمران : ٣ / ٩٢.

فكان يهدي أفخر ثيابه للمحتاجين والمعوزين [١] ، وكان يحمل جرابه ـ كما ذكرنا ـ ملثّماً في جوف الليل يوزّع المال والطعام على الفقراء والمساكين وذوي العسر والفاقة من يتامى وأرامل المسلمين. وكان يسمى ( صاحب الجراب ) [٢] ـ كما مر ..

وجاء في رواية أحمد بن حنبل والصدوق عن الامام الباقر عليه السلام أنّه كان يعول مائة بيت في المدينة [٣].

ويقول أبو نعيم في حلية الاولياء : ( كانت بيوت في المدينة تعيش من صدقات علي بن الحسين ، وبعضها لا تدري من أين تعيش ، فلمّا مات علي بن الحسين فقدوا ما كان يأتيهم ، فعلموا بأنّه هو الذي كان يعيلهم. وقال بعضهم : ما فقدنا صدقة السر حتى فقدنا علي بن الحسين ) [٤].

وينقل أبو جعفر الصدوق ، في « علل الشرائع » ، عن سفيان بن عيينة ( رأى الزهري عليّا بن الحسين في ليلة باردة مطيرة وعلى ظهره دقيق وحطب وهو يمشي فقال له : يا ابن رسول الله : ما هذا؟

قال : « **أريد سفرا أعدُّ له زادا أحمله إلى موضع حريز** » ، فقال الزهري : فهذا غلامي يحمله عنك ، فأبى ، فقال : أنا أحمله عنك. فقال : « **لكني لا أرفع عن نفسي عما يُنجيني في سفري ويُحسن ورودي على ما سأرِد عليه ، سألتك بالله لمّا مضيت في حاجتك وتركتني!** » [٥]!!

ويروي الزهري أيضا : ( لما مات زين العابدين فغسّلوه وجدوا على

---

(١) المحاسن : ٣٩٦. والبحار ٤٦ : ٧٢.

(٢) مناقب آل أبي طالب / المازندراني ٤ : ١٥٣.

(٣) سيرة الائمة الاثني عشر / هاشم معروف الحسني : ١٥٨.

(٤) سيرة الائمة الأثني عشر : ١٥٩.

(٥) مناقب آل أبي طالب ٤ : ١٥٤.

ظهره محل « أي علامة » فبلغني أنّه كان يستقي لضعفة جيرانه بالليل. وقيل : وجدوا على ظهره مثل ركب الابل ممّا كان يحمله على ظهره إلى منازل الفقراء ) [١].

وكان يفسّر إهداء ثيابه لفقراء المسلمين ، أن ذلك يُسرهم ويؤثّر في نفوسهم ، وحين يُسئل لم لا تبيعها وتتصدّق بثمنها؟ يجيب : « **إنّي أكره أن أبيع ثوبا صلّيت فيه** » [٢].

وهذا يعني أنه عليه السلام كان يعتقد أن من سيرتدي ثوبه هذا سيكون مسرورا وحافظا لود الإمام المحسن ، « والناس عبيد الإحسان » كما يقولون ، مجسداً رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم « **تهادوا تحابوا** » كما في الحديث الشريف ، فضلاً عن كونه عملاً تربوياً يتجاوز حدود المواساة الأخلاقية والروحية التي تكتفي فقط بالكلمات والمشاعر ولغة العواطف ولا تتعداها .. بل أكثر من ذلك أنّه عليه السلام كان لا يكتفي بمساعدة الفقراء ، بل كان يُقبّل أيديهم قبل أن يناولهم الصدقة [٣] مذكرا مرة أُخرى بمقولته المشهورة : « **مرحبا بمن يحمل زادي إلى الآخرة** ».

وعن زهده في الحياة الدنيا وترفعه على حطامها ومتاعها وزخرفها ، تشير كل تفاصيل حياته عليه السلام انّه كان أزهد أهل زمانه وأورعهم وأتقاهم ..

ينقل عبدالله بن المبارك أنّه شاهد الإمام في موسم الحج وهو يسير بلا زاد ولا راحلة. قال : فقلت له : مع من قطعت البوّ! قال : « **مع البار** ». فقلت : يا ولدي وأين زادك وراحلتك؟! فأجاب : « **زادي تقواي** ،

---

(١) المصدر السابق : ١٥٤.

(٢) البحار ٤٦ : باب ٥ . ٧٧.

(٣) المصدر السابق.

**وراحلتي رجلاي ، وقصدي مولاي ».**

وينقل رواة سيرته أنّه قضى معظم أيام حياته صائماً ، وقد سُئلت جاريته عن عبادته ، فأجابت : ( ما قدمتُ له طعاماً في نهار قط ، وقد أحبّ الصوم وحثّ عليه ، وكان يقول : « **إن الله تعالى وكّل ملائكة بالصائمين .. »** [1].

وهذا يعني أنّه عليه السلام لم يحاول ترسيخ القيم والمبادىء عبر الاَعية والمواعظ وتصدير الشعارات كما يفعل محترفو السياسة وتجّارها ، وإنّما كان يقرن القول بالفعل ، والشعار بالسلوك ، وكان في إنفاقه هذا يؤكد زهده بالمال وعدم اكتراثه به ، وأنه إنّما كان ينفقه باعتباره مال الله وهو مستخلف عليه ليس إلاّ ، وإنّه بتأكيده على تفقّد الاَرامل واليتامى والفقراء إنّما أراد أن يفضح أولئك الذين يتشدّقون بشعارات الإسلام ويتلفّعون بأحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهم أبعد الناس عن تطبيقها أو تجسيدها على أرض الواقع ، فضلاً عمّا كان يضمره في الاستخفاف بعلماء السوء وفقهاء السلاطين الذي وصفهم القول المأثور : « **إنّهم يُزهّدون الناس في الدنيا ولا يزهدون ، ويرغّبونهم في الآخرة ولا يرغبون ، يُقرّبون الاَغنياء ويُبعّدون الفقراء** » [2].

وباختصار شديد ، أنّه عليه السلام بإنفاقه وزهده كان مثال القائد العظيم الذي لا يرفع شعارات الحفاة والجياع للتجارة والاستهلاك والتسويق السياسي ، وإنّما كان يقرن ذلك بالترجمة والسلوك ، وهذا جزء من رسالته التي ادّخره

---

(١) حياة الإمام زين العابدين / باقر شريف القرشي : ٢٠٣.

(٢) العقد الفريد ٢ : ٢٢٧ ، طبعة دار الكتاب . بيروت ١٤٠٣ هـ. والقول منسوب للسيد المسيح عليه السلام .

الله تعالى لها لكشف الادعياء والمزيفين والمبرقعين بالقدسية ، وخاصة حمَلة الشعارات وقرّاء القرآن المحترفين ، وتجار الدين الذين يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ، والذين باع الكثيرون منهم دينهم بدنياهم ، بل باع بعضهم دينهم بدنيا غيرهم ، وكانوا مثلاً سيئاً لأُولئك المتزلّفين النفعيين الانتهازيين الذين قيل فيهم : ( إنّهم حاربوا قلوبهم من أجل بطونهم ، وحاربوا ربّهم من أجل واليهم .. ).

# الفصل الخامس

# رسالة الحقوق

## الإعلان الأوَل لحقوق الإنسان في العالم

### رسالة الحقوق .. محاكمة المفاهيم بالمصاديق

لا نظن أننا منحازين حين نقول إن تجربة الإسلام الأُولى ، أي تجربة الصدر الأَول للإسلام في زمن النبي وعهد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، كانت التجربة الأَروع في تاريخ البشرية من حيث سيادة العدالة الاجتماعية وتكريس حقّ الإنسان في الحياة الحرة الكريمة ، ونقل المجتمع البشري من ظلمات الجهل والجاهلية إلى نور الحق والعدل ...

ورغم أن هذه التجربة لم يُكتب لها الاستمرار طويلا بحكم طبيعة البشر في تغليب مصالحهم على مبادئهم ، وبحكم الإنحراف عن خط الرسالة الأَصيل ، إلاّ أنّها كانت ولا زالت وستظلّ التجربة الأَمثل لمن يحاكم المفاهيم في ظلّ المصاديق ، ويحاكم النظرية على أساس التطبيق ...

وحين يُقال إن إصلاح أية نظرية أو فكرة لا يمكن إقراره عبر اليافطات والشعارات التي ترفعها ، وإنّما بإمكانية تطبيقها على أرض الواقع ، يمكن القول أيضاً إن تجربة الإسلام الأُولى تلك ، كانت بحق تجربة المصاديق

الأُولى التي لم يستطع أي مؤرخ التنكّر لها مهما جنح أو تحامل أو تحيّز.

ومن أجمل مصاديق هذه التجربة ، بل أصدق رجالها الذين زاوجوا بجدارة بين المفهوم والمصداق ، والقول والفعل ، هو الإمام زين العابدين عليه السلام الذي جاء امتدادا حقيقيا لمدرسة النبي المصطفى محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم ومدرسة جدّه علي بن أبي طالب عليه السلام صوت العدالة الانسانية وبقي نموذجا شاهداً ، وبقيّة صالحة من أبيه الحسين بن علي عليهما السلام ، الذي قدّم لرسالته ودينه ما لم يقدمه إنسان على وجه الأَرض في عمق إيمانه وصدق تضحيته وإخلاص نيّته ونبل سلوكه وإبائه وشهامته ورساليته ..

وحين نقول المصاديق ، أو تجربة المصاديق ، فاننا نعني أنّ مصداقها الأَول والأَكثر تجليا وسطوعاً ، وعلى المستويين النظري والتطبيقي ، هو شخصية واضع هذه التجربة أو رائدها وزعيمها ، وهو موضوع بحثنا الإمام زين العابدين عليه السلام .

ولما كنا استعرضنا بعض تفاصيل حياة هذا الرجل العظيم في بعض مصاديقها العملية ، واكتشفنا ظهراً محدودباً يتفقد الأَرامل واليتامى في جوف الليل ، يحمل المؤن والمساعدات لمن لا معيل لهم ولا كفيل ، وهو أفقه أهل زمانه وأكثرهم علماً وورعاً ومعروفية ، ثم رأينا على محياه دموعاً ساخنة تجري بغزارة لتأكيد الانفعال الصادق الطاهر مع المضطهدين والمعذّبين ، مشفوعة بيقينٍ ثابت برجاء ثواب الله ، واعتقاد راسخ بآخرة باقية أفضل من أولى فانية ، وإن غيبتها السياسة ومترفوها وتجارها.

من هنا لم يبق إلاّ أن نقول وبلا تردّد ، أن هذا المصداق أنشأ وأسس

وأصّل مدرسة نموذجية فريدة تهتم بالفعل قبل القول ، وبالتجسيد قبل التنظير ، وبالانفعال الصادق قبل التفاعل والتفعيل والشعارات الكاذبة.

ومع ذلك يمكن القول أن أعظم ما وصلت إليه البشرية اليوم هو ترسيخ مبادىء حقوق الإنسان ، ونشر ثقافة الحقوق ، وأدب الحقوق ، وإن بقيت الفاصلة شاسعة بين الواقع والادّعاء ، إلاّ أن الجهد البشري استطاع مشكورا طبعا أن يعمّم هذه الثقافة ويدعو إلى تطبيقها على الأمم والشعوب ، ويؤسس لذلك وعبر عشرات الاعلانات العالمية لحقوق الإنسان وعشرات المؤتمرات التي تدعو الإنسان وتناشده احترام أخيه الإنسان والاعتراف بحقه في الحياة الحرة الكريمة ...

ولّما مررنا مرورا سريعا على ما سمّاه البعض ( زبور آل محمد ) أي الصحيفة السجادية للإمام السجاد عليه السلام ، وقرأنا عمق العلاقة التي حاول رسمها أو شدّها هذا الإمام العظيم بين الإنسان وربه ، فاننا نمرّ الآن مروراً سريعاً أيضاً على البعد الآخر الذي حاول الإمام ترسيخه عبر نظرية حقوقية متكاملة ، أو رسالة حقوقية يمكن اعتبارها بحقّ ديباجة لكلّ وثائق وإعلانات حقوق الإنسان في العالم ، وإن كانت جاءت قبل هذه الوثائق العالمية بأكثر من ألف عام ...

أي إنه عليه السلام كان موفّقاً هنا أيضاً ، حين لم يكتفِ برسم معالم العلاقة وحدودها بين الإنسان وربه ، وإنّما راح يُنظّر للعلاقة المهمة الأُخرى بين الإنسان وأخيه الإنسان ، ويضع مواد قانونية يمكن اعتبارها بحق أيضا أجمل وأعظم وأمتن ما كُتب حول الحقوق ورسالات الحقوق وثقافة الحقوق.

تأسيساً على ذلك ، يمكننا القول إن رسالة الحقوق التي كتبها لنا الإمام زين العابدين هي أول إعلان إسلامي بل عالمي لحقوق الإنسان ، كما ثُبّت قبل ألف وأربعمائة سنة ، وقبل أن يعرف العالم إعلانات واتفاقيات ومبادىء الحقوق بهذه النظرة الشمولية الرائدة ...

## مع رسالة الحقوق :

فلنمرّ مروراً سريعاً ، إذن ، على رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام بديباجتها النظرية البليغة التي لم تفصل بين السماء والأرض كما تفعل إعلانات حقوق الإنسان العالمية اليوم ، بل راحت تؤكد على تغيير المحتوى الداخلي للإنسان الذي به ومنه تنطلق إرادات التغيير نحو عالم أفضل وأكمل.

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام في ديباجته لرسالة الحقوق هذه « **إعلم ، رحمك الله ، أنّ لله عزَّ وجلَّ عليك حقوقا محيطة بك في كلِّ حركة تحركتها أو سكنة سكنتها أو منزلة نزلتها .. وأكبر حقوق الله عليك ما أوجبه لنفسه تبارك وتعالى ، وما أوجبه عليك لنفسك من قرنك إلى قدمك على اختلاف جوارحك ، ثمّ حقوق أئمتك وحقوق رعيتك وحقوق رحمك ، فأوجب عليك حق أمّك وحقّ أبيك ، ثمّ حقّ ولدك وحقّ أخيك ، ثمّ الأقرب فالأقرب ...** ».

بعدها راح الإمام يُعدّد هذه الحقوق حقاً حقاً ، ليفصّلها بعدئذٍ بدقّة وموضوعية وعمق ، وكان مما قاله عليه السلام في إحصاء هذه الحقوق : « **ومنها حقّ غريمك الذي تطالبه ، وحقّ غريمك الذي يُطالبك ، ثمّ حقّ خليطك ،**

ثمّ حقّ خصمك المدّعي عليك ، ثمّ حقّ خصمك الذي تدّعي عليه ، ثمّ حقّ مستشيرك وحقّ المشير عليك ، ثمّ حقّ مستنصحك وحقّ الناصح لك ، ثمّ حقّ من هو أكبر منك ، وحقّ من هو أصغر منك ، ثم حقّ سائلك وحقّ من سألته ، ثمّ حقّ أهل ملّتك عامّة ، ثمّ حقّ أهل الذمّة ، ثمّ الحقوق الجارية بقدر علل الأحوال وتصرّف الأسباب ... ». ثم يفصلها واحدا بعد الآخر بشكل محكم ودقيق ..

وهكذا ومن أول كلمة ، أو التفاتة ، وبلا مزايدات إعلامية ، نلاحظ أن الإمام السجاد عليه السلام أكّد على حق الله الذي هو ما أوجبه الخالق على الناس من قيم عظيمة ومُثل نبيلة ، لم يحاول عليه السلام الدخول في تفاصيلها وفرض وصايته على تحديدها ، كما يفعل بعض من يدّعون الوصاية على الناس والحديث نيابة عن المطلق ، ولسبب بسيط ومعلوم طبعا أن حق الله على العباد جاء واضحا صريحا بسيطا في كتب الله وسيرة أنبيائه ورسله وتعاليمهم التي دعت إلى التحلّي بالاخلاق الفاضلة والقيم الرفيعة التي جُبلت عليها الفطرة البشرية السليمة ، وبلا مماهاة أو مماحكات أو التواءات ، كالصدق والأمانة والحياء والوفاء والانتصار للمظلوم ومخاصمة الظالم ومساعدة المحتاج ، وإغاثة الملهوف ، والمعاملة الطيبة وصدق الحديث وبر الوالدين والرفق بالضعيف والجار وما إلى ذلك.

وكما هو حقّ الله المدوّن في كتابه وسُنّة أنبيائه ، جاء حقّ النفس على صاحبها ، ثمّ حقوق الآخرين فرداً فرداً ، ليكون الإمام عليه السلام أفضل تجسيد لها ، والإنصهار بها ، وبلا مدّعيات أو شعارات . كما قلنا . قد تُفرِّغ المفاهيم من روعتها ، وتُسفِّه المصاديق العظيمة وتستخفّ بها.

لنمر مرورا سريعا أيضا على مقتطفات من بعض هذه الحقوق كما

وردت على لسان الإمام زين العابدين عليه السلام ، تاركين تفاصيلها لمن يريد أو يرغب التفصيل في رسالة الحقوق المعروفة للإمام.

## حقوق الرعية والراعي :

يبدأ الإمام عليه السلام بتأكيد الحق الأكبر والأول الذي يؤسس لبقية الحقوق ويؤدي لها ، وهو حق الرعية على الراعي ، أي حق الأُمّة على القائد ، أو حق المحكوم على الحاكم ، وهذا الحق طبعاً هو موضوع ابتلاء الأُمم والشعوب على امتداد العصور والأزمان ، فيقول عليه السلام مخاطبا الحاكم « **فإنّما حقوق رعيتك بالسلطان : فأن تعلم ، أنك إنّما استرعيتهم بفضل قوتك عليهم ، وإنّ الله إنّما أحلّهم محلّ الرعية لك ضعفهم وذلّهم ، فما أولى من كفاكه ضعفه وذلّه حتى صيّره لك رعية ، وصيّر حكمك عليه نافذاً ، لايمتنع منك بعزّة ولا قوة ، ولا ينتصر في تعاظمه منك إلاّ بالله ، بالرحمة والحياطة والأناة ، وما أولاك إذا ما عرفت ما أعطاك الله من فضل هذه العزة والقوّة التي قهرت بها أن تكون لله شاكراً ، ومن شكر الله أعطاه فيما أنعم عليه ...** ».

ثم يفصّل هذه الحقوق وكأنه امتداد أصيل لجده الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام الذي ترك عهده لمالك الأشتر وثيقة خالدة اعترف ويعترف بها كل القادة والزعماء التأريخيين ومازالوا ، وكيف أنها صارت منهجاً علمياً رصيناً في سياسة الحاكم لرعيته ورفقه بها وتعامله معها.

وبعد أن يحدد الإمام زين العابدين عليه السلام حقوق المحكوم على الحاكم ، يتوقف عند حقوق الحاكم على المحكوم ، فيعطي كل ذي حق حقه ، بلا

مواربة أو تحيّز أو مساومة ، فيقول مخاطباً المحكوم هذه المرّة : « **فأما حق سائسك بالسلطان ، فأن تعلم أنك جُعلت له فتنة وأنه مبتلى بك ، بما جعل عليك من السلطان ، وأن تُخلص له في النصيحة ، وأن لا تُماحكه ، وقد بسطت يده عليك ، فتكون سبب هلاك نفسك وهلاكه ، وتذلّل وتلّطف لِاعطائه من الرضا ما يكفّه عنك ولا يضرّ بدينك ، وتستعين عليه في ذلك بالله ، ولا تعازّه ولا تعانده ، فإنّك إن فعلت ذلك عققته وعققت نفسك ، فعرضتها لمكروهه ، وعرّضته للهلكة فيك وكُنت خليقا أن تكون معينا له على نفسك وشريكا له في ما أتى إليك ...** ».

بهذه الموازنة الدقيقة يضع الإمام زين العابدين عليه السلام معايير الحقوق بين الراعي والرعية ، فلا يُسرف الراعي في استخدام رعيته التي بايعته وعاضدته وساندته ، فيذلها ويمتهنها ، ويحوّلها إلى قطيع وخول تكبّراً واستهتاراً ، وفي نفس الوقت لا تُسرف الرعيّة في الدلال والتغنّج على الوالي فتعانده وتتعزّز عليه وتماحكه وتجادله فتُهلكه وتهلك معه ، وإنّما أن يعرف كلّ ذي حق حقّه ، ويعرف كلّ حدوده وواجباته ومسؤولياته لتجاوز المحن وعبور المطبّات واحتواء الفتن ..

ولعلك تلاحظ الدقة والبلاغة والايجاز في تعبيره عليه السلام حين يقول « **وتلطّف لِاعطائه . للسلطان . من الرضا ما يكفّه عنك ( ولكن ) لا يضر بدينك .. »!**

## حقوق الرحم :

وبهذه المتانة والدقة والإيجاز ، ينتقل الإمام السجاد عليه السلام ليُسجّل حقوق

الآخرين ، الواحد تلو الآخر ويضع كل نقطة على حرفها ، محركاً كوامن النفوس مستنهضاً الفطرة السليمة بلا مساومة أو مداورة أو مماهاة فيقول في حق الرحم مثلا :

حق الأمُ :

**« وأما حق الرحم .. فحق أمك أن تعلم أنّها حملتك حيث لا يحمل أحدٌ أحداً ، وأطعمتك من ثمرة قلبها مالا يطعم أحد أحداً ، وأنّها وقَتْكَ بسمعها وبصرها وبيدها ورجلها وشعرها وبشرها وجميع جوارحها ، مستبشرةً فرحة لما فيه مكروهها وألمها وثقلها وغمّها حتى دفعتك عنها يد القدرة ، وأخرجتك إلى الأرض ، فرَضِيتْ أن تشبع وهي تجوع ، وتكسوك وتعرى ، وترويك وتضمى ، وتُظلك وتضحى .. ».**

إلى أن يقول عليه السلام : **« وتنعّمك ببؤسها ، وتلذّذك بالنوم بأرقها .. كان بطنها لك وعاء ، وحجرها لك حواء ، وثديها لك سقاء ، ونفسها لك وقاء ، تباشر حرّ الدنيا وبردها لك ودونك ، فتشكرها على قدر ذلك ، ولا تقدر عليه إلاّ بعون الله وتوفيقه .. ».**

حق الأبِ :

**« ... وأما حق أبيك فأن تعلم أنّه أصلك ، وأنت فرعه ، وأنّك لولاه لم تكن ، فمهما رأيت في نفسك مما يعجبك ، فاعلم أن أباك أصل النعمة عليك فيه ، ... واحمد الله واشكره على قدر ذلك ... ».**

حق الولد :

**« ... وأما حق ولدك ، فأن تعلم أنّه منك ، ومضافٌ إليك في عاجل الدنيا بخيره وشرّه ، وأنك مسؤول عما ولّيته من حسن الأدب والدلالة على ربّه ، والمعونة له على طاعته فيك وفي نفسك ، فمثابٌ على ذلك ومعاقب ، فاعمل في أمره عمل المتزين بحسن أثره عليه في عاجل الدنيا ، المعذّر إلى ربّه فيما بينك وبينه بحسن القيام عليه والأخذ له منه ... ».**

حق الأخ :

**« ... وأما حق أخيك ، فأن تعلم أنّه يدك التي تبسطها ، وظهرك الذي تلتجيء إليه ، وعزّك الذي تعتمد عليه ، وقوّتك التي تصول بها ، فلا تتخذه سلاحاً على معصية الله ، ولا عدّة للظلم لخلق الله ، ولا تدع نصرته على نفسه ، ومعونته على عدوه ، والحؤول بينه وبين شياطينه وتأدية النصيحة إليه والإقبال عليه في الله ، فإن انقاد لربّه وأحسن الإجابة ، وإلاّ فليكن الله آثر عندك وأكرم عليك منه ... ».**

بهذه الدقة والايجاز يستمر الإمام السجاد عليه السلام يسجّل حقوق الرحم ، وكأنّه يغوص في أعماق النفس الإنسانية ، ليستلّ منها أسمى ما فيها من النوازع والعواطف النبيلة ، ويجتثّ منها أخبث ما فيها من أحابيل الشر ودوافع الشيطان ..

فتراه في العبارة الأخيرة ، مثلاً ، يفكك بين حقين يتنازعان الإنسان في أغلب الأحيان ، ويدفعانه لاتخاذ أحدهما قبل الآخر ، وهما حق الأخ وحق الله ، فإذا كان ثمة خياران لا ثالث لهما : إمّا أخوك الذي هو « **يدك**

**الذي تبسطها ، وظهرك الذي تلتجىء إليه ، وعزك الذي تعتمد عليه ، وقوتك التي تصول بها »** وإمّا ربك ودينك ومبادئك ، فهنا يكون الحق المرّ أو الخيار المرّ .. هذا الأخ أم ذاك الربح !!

أي هل يتخذ من أخيه سلاحاً وقوة لمعصية الله ، أم يتخذ من الله معيناً فيزهد في حق أخيه .. وهذا هو الخانق الذي يجد الإنسان نفسه محشورا فيه في أغلب الأَحيان وخاصة إذا كان في موقع السلطة ، عشيرته التي ينتمي إليها ، أم مبادؤه التي رفعها شعاراً وهوية وانتسابا ونال بها تلك السلطة؟! قرابته التي يعيش في عزّها ومنعتها ، أم قيمه التي تدعوه للمواجهة أحياناً وربما التضحية بهذا الأَخ أو تلك العشيرة أو ذلك الانتساب؟!!

وبكلمة أُخرى ، أين يجب أن يقف الإنسان لحظة الصدام بين المبادئ والمصالح؟ وأيُّهما أجدر بالاتباع؟ حدود الدين مع مافيها من تضحية بالعاجل على حساب الآجل ، أم قيم العشيرة والحزب والقومية مع مافيها من مصالح ومنافع عاجلة ولكن على حساب الآخرة ونعيمها؟!

هذا هو المفترق الذي يحار فيه أغلب الرجال مهما أوتوا من قوة وعزيمة ، وهذا هو الخيار الذي يدعو الإمام لاتخاذه بلا تردّد ، وقد اتخذه عليه السلام قولا وفعلا في العشرات من المواقف وحيث أعطى لله كل مالديه ، وأصرّ أن يعيش محاصراً مطارداً ملاحقاً مقصياً عن موقعه مهضوماً حقه ، لا معين له إلاّ الله ، ولا عشيرة إلاّ حدود الله وقيمه وتعاليمه [1].

---

(١) راجع قولته عليه السلام المارة الذكر في كتاب ( الإمام السجاد / حسين باقر : ٦٣ ) والتي جاء فيها

ومع هذا وذاك ، لم يفُت الإمام عليه السلام أن يؤكد معونتك لأخيك ونصرته بقوله عليه السلام : « ولا تدع نصرته على نفسه » أي حاول الحيلولة بينه وبين شيطانه أو شياطينه . على حد قوله عليه السلام . بأداء النصح ، والتماس العذر سعياً حثيثاً لاستيعابه ، وتشبثاً كريماً للرفق به والعطف عليه ، من أجل احتوائه وعدم التفريط به .. حتى يتأسى منه ، وإلاّ « **فليكن الله آثر عندك ، وأكرم عليك منه** »!!!

## حق الغريم :

وينتقل الإمام إلى حقّ آخر لا يقلّ إحراجاً عن سابقاته في لحظة الخيارات الصعبة ، وبين أن يقسو أو يُقسى عليه ، فيقول في حق الغريم مثلاً : « **... وأما حق الغريم المطالب لك ، فإن كنتَ موسراً أوفيته ، وكفيته وأغنيته ولا تردّه وتمطله ، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : ( مطل الغني ظلم ) ، وإن كنت معسراً أرضيته بحسن القول ، وطلبت إليه طلباً جميلاً ورددته عن نفسك ردّاً لطيفاً ، ولا تجمع عليه ذهاب ماله وسوء معاملته ، فإن ذلك لؤم ..** ».

وهكذا يقترب الإمام عليه السلام لتفعيل هذا الحق بمجسٍّ حساس جداً لآلة الفكر البشري ، وكأنّه يحرك كوامن الفطرة البشرية السليمة ، يستنطق الذات في طريقة تعاملها مع الآخر طالباً كان أو مطلوبا ...

## حق الخصم :

أما التعامل مع الخصم ، فيأتي الإمام السجاد عليه السلام هنا أكثر دقّة وحساسية ،

---

ما نصّه : « لم يبق في مدينة الرسول ومكّة أكثر من عشرين رجلا يحبوننا أهل البيت .. ».

**لما لهذا البُعد من آثار اجتماعية مهمة يجب الالتفات إليها والنظر أو التحديق فيها من زوايا متعدّدة فيقول عليه السلام : « وأما حق المدّعي عليك ، فإن كان ما يدّعي عليك حقاً لم تنفسخ في صحبته ، ولم تعمل في إبطال دعوته ، وكنت خصم نفسك له والحاكم عليها ، والشاهد له بحقه ، دون شهادة الشهود ، فإنّ ذلك حق الله عليك ، وإن كان ما يدّعيه باطلاً ، رفقت به وردعته وناشدته بدينه ، وكسرت حدّته عنك بذكر الله ، لأَنّ لفظة السوء تبعث الشرّ ، ولفظة الخير مقمعة للشر ..**

**وأما حق المدّعى عليه ، فان كان ما تدّعيه حقّاً أجملت في مقاولته ، فان للدعوى غلظة في سمع المدّعى عليه ، وقصدت قصد حجتك بالرفق ، وأمهل المهلة ، وأبين البيان ، وألطف اللطف ، ولا تتشاغل عن حجتك بمنازعته بالقيل والقال ، فتذهب عنك حجتك ، ولا يكون لك في ذلك حَرَك .. ».**

## حقوق أُخرى :

ويستمر الإمام عليه السلام في تفصيل رسالة الحقوق هذه ، فيشير إلى حق المشير وحق المستشير ، وحق الناصح والمستنصح ، وحق الصغير على الكبير ، وحق الكبير على الصغير ، وحق السائل وحق المسؤول ، وحق من سرّك ، وحق من ساءك القضاء على يديه ، وهكذا حتى يحس القارئ لهذه الرسالة القانونية ، أنّه غارق في مدوّنات دستورية بالغة التركيز والدقة ، فلاجملة مضافة ولا حرف زائد ، ولا سجع ممل ، ولا إنشاء غائم ، مستلاًّ

كل ذلك من القرآن الكريم والحديث الشريف والسُنّة النبوية المطهّرة ...

ولم يفُت الإمام عليه السلام في خاتمة رسالته ، أن يحدّد حقوق أهل الذمّة مذكّراً بحديث جدّه أمير المؤمنين عليه السلام : « **الناس صنفان : إمّا أخ لك في الدين ، أو نظير لك في الخلق ...** » [1] ، فيقول عليه السلام : « **وأما حق أهل الذمّة فالحكم فيهم أن تقبل منهم ما قبل الله ، وتفي بما جعل الله لهم في ذمته وعهده ، وتكِلهم إليه في ما طلبوا من أنفسهم ، وتحكم فيهم بما حكم الله به على نفسك في ما جرى بينك وبينهم من معاملة ...** ».

إلى أن يقول : « **وأن تقبل منهم ما قبل الله عزَّ وجلَّ منهم ، ولا تظلمهم ما وفّوا لله عزَّ وجلَّ بعهده ...** ».

وهذا يعني أنّ المقياس الأول والأخير في تحديد الحق بينك وبين الآخرين هو حدود الله ، فلا مجال للأهواء والمصالح والمتغيّرات ، ولا أغطية ومجاملات وعلاقات على حساب اللياقات .كما يقولون . ولا ( حق فيتو ) يتوارى خلفه أصحاب المصالح والأهواء ، ولا عبارات مطّاطة وتوظيف نصوص تكيل الأمور بمكيالين وتزنها بميزانين ..

## كلمة أُخرى في رسالة الإمام عليه السلام :

مسألة أُخرى مهمة في رسالة الحقوق هذه ، أنّها توجهت إلى النفس الإنسانية مباشرة وراحت تعالج أدقّ التفاصيل التي تعتمل في سريرة الفرد ودخيلته ، أي ليس كما جاء في الإعلانات العالمية المعاصرة لحقوق

---

(١) نهج البلاغة ٣ : ٨٣ ـ ١٠٢.

الإنسان ، حيث تدور المواد القانونية في دائرة الأُمّة والمجتمع دون الإلتفات إلى دور الفرد في صناعة هذه المقدمة الضرورية لوضع المواد القانونية موضع التنفيذ ...

وهذا يعني أن مواد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان التي دوّنت في وثيقته الصادرة في ١٠ كانون أول ١٩٤٨ م ، والتي اعتُبرت أفضل وثيقة عالمية تصدر في هذا السياق بحق ، جاءت لتؤكد على أن ( الناس متساوون في الكرامة والحقوق ، وأنّهم وهبوا عقلاً وضميراً ، وعليهم أن يُعاملوا بعضهم بروح المودّة والمساواة والإخاء .. ) [١].

كما أكدت المادة الثانية على مساواة الناس في الحريات ( دون أي تمييز في الجنس أو اللون أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو المولد أو الأصل الوطني أو الاجتماعي ) [٢].

ونصّت المواد الثالثة والرابعة والخامسة على حق الفرد في الحياة الحرة والأمن الشخصي ، وعدم جواز الرق والتجارة فيه ، ورفض التعذيب وأيّة معاملة قاسية أو وحشية تحطّ من كرامة الإنسان .. وهكذا في جميع مواد الإعلان العالمي التي شملت حق التجنّس وحق الهجرة وحق اللجوء وحق الضمان الاجتماعي وحق التعلّم وحق الضمير ..

إنّ هذه الحقوق التي أقرّتها الأُسرة الدولية ، ووقّعتها كل حكومات العالم آنذاك ، لم توضع موضع التنفيذ ، إن لم نقل تمّ تجاوزها في عموم دول العالم وإنّما بقيت حبراً على ورق ، لأنّها لم تشدّ الإنسان إلى خالقه

---

(١) الاعلان العالمي لحقوق الإنسان . الصادر في ١٠ كانون أول ١٩٤٨ م . المادة الأولى.

(٢) المصدر السابق ، المادة الثانية.

أولاً ، ولأنّها جاءت من فوق الإنسان وليس من داخله ، ولأنّها اهتمت بالطرح المفاهيمي دون التأكيد على المصاديق ، وأكدت على الحكومات والشعوب دون النظر إلى الفرد والنفس البشرية ، أي عكس ماقاله أو فعله الإمام زين العابدين عليه السلام صاحب رسالة الحقوق هذه ، الذي اهتم بسريرة الإنسان ودخيلته ، وعلاقته مع ربّه ، وصولاً إلى عملية التغيير الكبرى في إطار الأُمّة والمجتمع ...

فهو عليه السلام حين يقول مثلا : « **إن أفضل الجهاد عفّة البطن والفرج** » فإنّما يدعو إلى ترسيخ أعظم القيم في النفوس ، أي إلى تهذيب هاتين الشهوتين اللتين بسببهما تُعلن الحروب وتنشب المعارك وتُرفع رايات الاقتتال على مستوى الأفراد والشعوب ...

وهو حين يؤكد على حقوق أهل الذمة وأن ( يُقبَل منهم ما قبله الله عزَّ وجل ) ويمارس ذلك واقعاً وسلوكاً ، فانما يدعو إلى احترام الإنسان مهما كانت ديانته ومعتقداته وبعيداً عن الشعارات التي يرفعها الحكام وأدعياء حقوق الإنسان للاستهلاك والتسويق السياسي بكل صوره وألوانه المحلي والعالمي ، القطري والإقليمي ، القومي والوطني.

ومن جانب آخر ، فإنّه عليه السلام حين يجسّد الحلم والتواضع والعفو وحب العلم والعلماء بمصاديق عملية واضحة ، مقروءة ومرئية ومسموعة ، فإنّما يقصد من وراء ذلك ، وضع اللوائح القانونية والمواعظ والشعارات والتوجيهات موضع التنفيذ ، وإلاّ فلا قيمة لتسويد عشرات الصفحات ، أو كتابة مئات الإعلانات ما دامت باقية حبيسة المدوّنات وأسيرة الرَ اشيف المغبرة التي لا وجود لها على أرض الواقع ...

فهو حين يرحّب بالشباب الواعي مثلا مخاطبا إياهم : « **مرحبا بودائع العلم .. يوشك إذ أنتم صغار قوم أن تكونوا كبار آخرين** » [١] ، فإنّما يريد التأكيد على دور الشباب في صناعة المستقبل ودور العلم في تطور الشعوب ..

وهكذا في قوله : « **كلكم سيصير حديثاً ، فمن استطاع أن يكون حديثاً حسناً فليفعل** » [٢].

أما عن حلمه وصفحه عن خصومه وتجسيده لمقولة جدّه عليه السلام « **أفضل العفو ، العفو عند المقدرة** » فإن قصة صفحه عن غريمه مروان بن الحكم وكيفية لجوئه عنده مع حريمه ونسائه مستنجداً ، لائذاً ، دخيلاً ، هارباً من غضب أهل المدينة الذين طردوا عامل يزيد عليها في ثورتهم المعروفة ومطاردتهم لبني أُميّة ، جاءت هي الأُخرى لتؤكد أن هذا الرجل يعيش في قلوب الناس وليس على جماجمهم وأشلائهم ، كما يعيش الجبابرة والسلاطين وحكام الجور.

وهكذا جاءت قصته مع ذاك الذي حاول استفزازه بكلمات جارحة بذيئة ، وتجاهل الإمام له ، وردّ ذلك الوغد البذيء : ( إياك أعني ) ورد الإمام عليه : « **وعنك أعرض** » [٣] مع قدرته على تأديبه لو شاء ..

وكذلك قصته مع الآخر الذي افترى عليه وبالغ في سبّه ، وردّه عليه السلام « **إن كنّا كما قلت غفر الله لنا ، أو ( نستغفر الله ) ، وإن لم نكن كذلك غفر الله**

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٣ : ٣٧.

(٢) تاريخ اليعقوبي ٣ : ٣٧.

(٣) البداية والنهاية ٩ : ١٠٥.

**لك »** [1]!!

كل هذه الأُمور والمواقف واللفتات العملية الدقيقة وعشرات مثلها ، هي التي خلّدت الإمام زين العابدين وجعلته في مصافّ أعظم الأئمة والمصلحين وزعماء التاريخ ، وإنّها هي التي هيأت له من أسباب الخلود ما لم تهيئه لمناوئيه ومعاصريه من الحكام الأمويين الذين تحكّموا بالرقاب دون المشاعر ، وركّزوا على الشعار دون الواقع ، فصاروا عاراً على التاريخ ولعنة للأجيال ...

نعم ، جاءت مواقف الإمام حاكمة على نظرياته وليس العكس ، وجاءت مصاديقه ترافع مفاهيمه وليس العكس ، وهكذا جاءت دموعه الحرّى ناطقة عن إيمانه وصبره وفجيعته ، كما جاء حزنه الصامت مفصحاً عن ثورته ورفضه وتمرده.

لقد جسّد عليه السلام بحق نظرية أبيه في طلب الإصلاح في أُمّة جدّه صلى الله عليه وآله وسلم ، وجاء امتداداً صادقاً لتلك التضحية الخالدة التي كانت وستظل غرّة على جبين الزمان ، مادام هناك صراع بين الحق والباطل ، أو بين السماحة واللؤم ، أو بين النقص والكمال ، أو القبح والجمال ...

فلولا القبح ما عُرف الجمال ولولا النقص ما عُرف الكمال

( والباقيات الصالحات خير عند ربّك ثوابا وخير مردّ ) [2].

---

(١) الكامل للمبرد ٣ : ٨٠٥.

(٢) سورة مريم : ١٩ / ٧٦.

## الفصل السادس

### خلاصة الجهاد السياسي عند الإِمام السجاد عليه السلام

ينبغي القول فعلاً إنّ الجهاد بالنفس هو أفضل أنواع الجهاد ، وأن الجود بالنفس هو أغلى غاية الجودِ .كما يقولون . ولكن هذه المقولات أو هذا الفهم ربما يصير كلمة حق يُراد بها باطل عند بعض الناس ، فيبخس هذا البعض على غيرهم من الناس جهادهم ( الأكبر ) وهو جهاد النفس وليس الجهاد بالنفس .كما نص على ذلك قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم . ، في تعريفه للجهادين الأصغر والأكبر ، ويستكثرون على الذين لم يتسنّ لهم خوض المعارك ، جهادهم هذا وصبرهم وصمودهم وثباتهم على طريق الحق ، ويتهمونهم أنهم متخاذلون ناكصون منكفئون لاقدر لهم ولا قيمة ولاخلاق ، ناسين أو متناسين مثلاً أنّ كلمة حق أمام سلطان جائر هي أفضل الجهاد ، وأن الجهاد بالمال يتقدم في كثير من الأحيان على الجهاد بالنفس في محكم كتاب الله العزيز ... [1] وأن مطبات الجهاد السياسي

---

(١) ( الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ) سورة التوبة : ٩ / ٢٠. ( لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ) سورة التوبة : ٩ / ٨٨. ( انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم

أحيانا أصعب وأعقد من لحظات المواجهة الساخنة الواضحة مع الأعداء ، وخاصة إذا كان رمز هذا النوع من الجهاد مطالبا بحقن دماء شيعته أو حفظ بقيتهم أو تدبير دورهم في مواجهة طاغوت لئيم لا يعرف قلبه الرحمة ولا يهمّه أن يُجهز عليهم جميعا دون أن يرف له جفن إذا ماهمسوا ضده بقول أو انبروا له بفعل أو عمل ...

هذا الخانق المؤلم بين الخيارين : خيار الاستشهاد والتضحية ، أو خيار الصبر والتقية ، هو الذي وجد الإمام السجاد نفسه مضطرا إليه بعد أن أنجاه الله تعالى من موت أكيد مع إخوته وأبناء عمومته بسبب المرض الذي أقعده عن حمل السلاح في يوم الطفوف ، وهو الخيار المر الذي اضطر عليه السلام لسلوكه لاستكمال الدور الرسالي الذي انتُدب له .كما مرَّ ذكره ..

ولا نريد هنا تلخيص ما قدمناه في الفصل الأوّل من بحثنا الموجز هذا حول دور الإمام السجاد عليه السلام ، في ترسيخ القيم وكشف الشرعية المزيّفة لأدعياء الدين وفضح مدّعياتهم ، وسعيه الحثيث لتشكيل الجماعة الصالحة التي أخذت على عاتقها إتمام المهمة الرسالية التي لابد من وجود حي لإتمامها أو مواصلتها ...

نعم ، إنّ دين الله يمكن أن ينهض به المعارض الشريف حتى لو لم يستلم سلطة أو يستلم حكماً ، مادام قد فهم دوره وأتقن أداءه وأجاد تأديته ، وربما يكون هذا الدور قد فهم من قراءة فصول هذا الكتاب وبعض

---

في سبيل الله ) سورة التوبة : ٩ / ٤١. ( إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ) سورة الأنفال : ٧ / ٧٢.

إشاراته وتلميحاته وإثاراته.

وإذا أردنا أن نضيف شيئاً جديداً ، فإنّه لا يعدو أكثر من قراءة شبه متأنية لبعض مواقف الإمام السجاد عليه السلام من الظالمين وأعوانهم ، وكذلك مواقفه من بعض الحركات الشيعية التي تفجّرت في زمانه ، وكيف انتقل من مرحلة التقية المؤلمة إلى مرحلة المواجهة الساخنة ، لا سيّما بعد أن استنفذ دوره التبليغي الصامت ، وارتأى أنّه لابدّ أن ينتقل من المرحلة السلبية السرية الصامتة إلى مرحلة الإعلان الاقتحامي الواضح ، خاصة وإنّه أدرك أن خصومه قاتلوه لا محالة ، وأنهم لم يعودوا يستطيعون الصبر عليه ، والتغاضي عن دوره في تأليب الأُمّة ضدهم وتحشيد غضبها وإثارة سخطها.

### خيمة خارج المدينة :

لعل أول موقف سياسي حكيم كان على الإمام عليه السلام أن يتخذه بعد عودته إلى المدينة ، وبعد أيام من مشاعر الحداد والنحيب التي أجّجها في نفوس أهلها ، والتي قدّر عليه السلام أنّها لم تتعدّ أن تكون حالات عاطفية صادقة ، تفجّرت بسبب شعورهم بالإثم جرّاء عدم خروجهم مع الحسين عليه السلام ونصرته أولاً ، وفجيعتهم بمصرع ابن بنت نبيهم ثانياً ، هو أن ينأى بعيداً عن الناس الذين أدرك ضعفهم وخواءهم في لحظات المواجهة الساخنة مع الأعداء ، فاتخذ خيمةً في البادية ، واستظلّ ببيتٍ من بيوت الشعر في فيافيها مع مجموعةٍ من عياله وأهل بيته وخلص شيعته.

نعم ، اتخذ الإمام السجاد عليه السلام هذا الموقف ليعمّق الشعور بالذنب لدى أهل المدينة الذين خذلوا أباه ، واكتفوا بالبكاء أو التباكي معه حين عودته أولاً ، ولكي يتحاشى الاصطدام بالحكّام الأمويين الذين سيستهدفونه حتما إذا أحسوا منه أي بادرة أو همسة للتحريض ضد حكمهم ثانياً ، ( فبقي خارج المدينة من سنة ٦١ هـ إلى نهاية سنة ٦٣ هـ وكان يسير من البادية بمقامه إلى العراق زائرا لأبيه وجده عليهما السلام ولا يُشعر بذلك من فعله ) [١].

وفعلاً ، وحين أحسّ الأمويون بتململ أهل المدينة جاءت واقعة الحرّة المعروفة التي استباح فيها مسلم بن عقبة هذه المدينة ، وأباح فيها القتل والسبي والاعتداء الوحشي ، وكأن أول ( قصاص ) غيبي حل بأهلها الذين لم يفعلوا شيئا حين توديع الحسين عليه السلام ، إلاّ أن رمقوه بعيون منكسرة وقلوب متألمة لا تغني ساعة الموت عن الحق شيئاً ، قد جاء على يدي من سُمّي ( مُسرف بن عقبة ) هذا أو ( مجرم بن عقبة ) ، ويؤكد الشيخ المفيد في إرشاده ، أنّ مسرف بن عقبة هذا كان في بدايته لا يريد إلا قتل علي بن الحسين عليه السلام ، وحين لم يجد لقتله حجّة ، اكتفى أن أباح المدينة ثلاثة أيام بأمر يزيد ، وقد انفضّت فيها ألف عذراء ، وولد مئات الأبناء لا يُعرف آباؤهم ، وكان من بينهن بنات ونساء صحابة ... [٢].

نعم ، اتخذ الإمام السجاد عليه السلام تلك الخيمة النائية مأوى له ، ولم يجد

---

(١) راجع فرحة الغري / ابن طاووس : ٤٣. والإمام زين العابدين / المقرم : ٤٢.

(٢) راجع : دلائل البيهقي ٦ : ٤٧٥. والارشاد / المفيد : ٢٩٢. ويقول اليعقوبي في تاريخه : إنّ هذا المجرم ( أباح حرم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى ولدت الأبكار لا يُعرف من أولدهن ) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٥٠.

هذا ( المسرف ) سببا للإجهاز على الإمام عليه السلام وأهل بيته ، بل صار الإمام ملاذاً لمن التحق به من المؤمنين هربا من ( إسراف ) الجيش الأموي ووحشيته وبربريته. وكان ممن لاذ به من الأمويين عائلة مروان بن الحكم وزوجته عائشة بنت عثمان بن عفان .كما مرَّ ذكره . وأكثر من أربعمائة مُنافية ( من آل عبد مناف ) كان عليه السلام يعولهُن إلى أن تفرّ الجيش ... [1].

وهذا يعني أن الإمام السجاد عليه السلام أيقن أن أهل المدينة كانوا لا يحملون تجاهه إلا عواطف مفجوعة وشعور عميق بالذنب إن لم نقل مواساة كاذبة يمكن أن تتبدد في أول لحظة من لحظات الخطر أو المواجهة مع الموت ،كما حصل مع أبيه عليه السلام حين كانت قلوب الناس معه وسيوفهم عليه ...

ولذلك حين جاؤوه مبايعين يقولون : ( ... فمرنا بأمرك ، فإنّا حرب لحربك ، وسلمٌ لسلمك ) وغير ذلك ، قال لهم : « **هيهات .. ومسألتي ألا تكونوا لنا ولا علينا ..** » **وأخذ عليهم عهدا أن يأخذوا جانب الحياد فقط ...** [2].

### الموقف من الحركات الثورية :

من هذا المكان النائي ، ومن هذه العزلة الهادفة ، راح الإمام السجاد عليه السلام يبني الجماعة الصالحة ، ويرصد عن كثب أنباء الطلائع التي كانت تخرج بين فترة وأُخرى لتقويض الحكم الأموي ومناجزة الطغاة من ولاتهم وكشف

---

(١) أيام العرب في الإسلام : ٤٢٤ هامش رقم (١).

(٢) راجع : الاحتجاج / الطبرسي : ٣٠٦. واللهوف / ابن طاووس : ٦ ، ٦٧.

زيفهم ، لا سيّما تلك الثورات التي رفعت شعارات الثأر للإمام الحسين عليه السلام ، وإن كان بقي بعيدا عن بعضها ؛ إذ لم يرد عليه السلام أن يتحمّل مسؤولية الدماء التي ستُرَق فيها بغير حق أولا ، ولعدم تنسيق رجالها معه ثانياً ، وعدم وضوح منطلقاتها وأهدافها ، والتمثيل الذي ينفَّذ بقتلاها ثالثا ورابعا ...

ولعلّ ثورة التوابين بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي ، وكذلك ثورة المختار ، كانتا أبرز الأمثلة على تعضيد الإمام سرّاً لمثل هذه الحركات ، ولو بدرجة من الدرجات ، رغم أنّه لم يعلن ارتباطه المباشر معها ، ولكنه ترك الأمر لعمّه محمد بن الحنفية لكي يتعامل مع روادها بحكمة ودقّة ، مشيراً إليه باختصار : « **يا عم ، لو أن عبداً تعصّب لنا أهل البيت ، لوجب على الناس مؤازرته ، وقد أوليتُك هذا الأمر ، فأصنع ما شئت ..** » [1].

ويُشير العديد من المؤرخين أنّه ( لما أرسل المختار برؤوس قتلة الإمام الحسين عليه السلام وأولاده وأصحابه إلى الإمام ، خرّ الإمام ساجداً ودعا له وجزّاه خيراً ) [2].

أما ما ينقله بعض المؤرخين من سلبية موقف الإمام السجاد من المختار وثورته فإنّه يمكن أن يُقرأ من ثلاثة أبعاد :

**الأول :** هو محاولة هؤلاء المؤرخين تشويه تلك الثورة التي أدخلت السرور على بنات المصطفى ونساء الرسالة [3] ، وإن جنحت في بعض

---

(١) المختار الثقفي / أحمد الدجيلي : ٥٩. وراجع : مناقب آل أبي طالب ٤ : ١٥٧.

(٢) رجال الكشي : ١٢٥ ـ ١٢٧. وشرح الأخبار ٣ : ٢٧٠. وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٥٩.

(٣) جاء في تاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٥٩ ما نصّه : ( وروى بعضهم أن علي بن الحسين لم يُر ضاحكا

مقاطعها انفعالا وشططا.

**الثاني :** هو قيام الإمام السجاد عليه السلام بأداء دور كان لابد له أن يؤديه ، لكي يُبعد عن أذهان الأمويين المتربصين به ارتباطه بهذا الثائر العظيم ، وبالتالي تبرير استهدافه وقتله من قبلهم ، أو السماح لهم بتسويغ هذا الفعل ، أي منحهم التبرير لذلك ، قبل إتمام أهدافه واستكمال المهمة التي يريد أن يأتي إلى آخر مشوارها أو آخر شوط فيها.

**الثالث :** عدم تحمّله عليه السلام مسؤولية الإسراف في القتل الذي يُرافق الثورات الانتقامية أو الثأرية عادةً ، وخاصة تلك البعيدة عنه ، والتي لم ينسّق رجالها معه لا في الإعداد ولا في التنفيذ ...

ومن هنا كان موقفه المعروف من المختار حين جزّه خيرا من جهة ، ولكنه رفض استلام أمواله أو قبول بيعته من جهة أُخرى ، كما تقول الروايات التاريخية .. [1].

وهذا ما أراد تثبيته فعلاً من مواقف في ثورات أُخرى ، كان لا ينبغي أن تحسب عليه مقاطع الحرق والتعذيب وقطع الرؤوس والتمثيل بالأجساد والشماتة ، وما إلى ذلك.

---

يوماً قط منذ قُتل أبوه إلاّ في ذلك اليوم ، وأنّه كان له إبل تحمل الفاكهة من الشام ، فلما أتى برأس عبيدالله بن زياد أمر بتلك الفاكهة ، ففرّقت في أهل المدينة ، وامتشطت نساء رسول الله واختضبن ، وما امتشطت امرأة ولا اختضبت منذ قتل الحسين بن علي ... ) ويضيف المصدر نفسه في نفس الصفحة : ( أن المختار تتبع قتلة الحسين ، فقتل منهم خلقاً عظيماً ، حتى لم يبقَ منهم أحد ، وقُتل عمر بن سعد وغيره ، وحُرّق بالنار ، وعذّب بأصناف العذاب .. ).

(١) مناقب آل أبي طالب ٤ : ١٥٧. ومروج الذهب ٣ : ٨٣. ورجال الكشي : ١٢٦ رقم ٢٠٠.

## الموقف من الظالمين :

### موقفه من عبدالملك وهشام :

بعد أن رسّخ الإمام السجاد عليه السلام موقعه في قاعدته الشعبية ، وبعد أن عُرف إماماً عادلاً ورعاً تقياً نقياً ، يعرف الدين وحدوده ، وأصوله وفروعه ، ويقف وجهاً لوجه لمقارعة مغتصبي الخلافة والولاية والإمامة من الأمويين وأزلامهم .. وحين شعر أنّهم سيقتلونه لا محالة ، إثر اتساع قاعدته وشهرته وظهور أمره ، صار لزاماً عليه أن يُشهر عداءه و ( يُظهر علمه ) في مقارعتهم ومواجهتهم وكشف زيفهم وأحابيلهم .. وبكلمة أُخرى ، يقلّص دائرة التقيّة التي اتّسعت له سنين طويلة للامتداد أُفقاً وعمقاً في الوسط الجماهيري ، ولم يبق أمامه إلاّ اقتحام المحظور والمتهيب والمسكوت عنه في هذا الوسط المهزوم المغلوب على أمره ، المضلّل بالخطاب الإعلامي الأموي الموجّه الضاغط ...

رأى الإمام عليه السلام أن الخطوة الأُولى التي عليه تقحّمها رغم وعورتها وخطورتها هو كسر هيبة الحكام الأمويين وتهشيم هالتهم التي صنعوها بشراستهم وفرعونيتهم ودعاواهم العريضة بالانتساب إلى الإسلام ونبي الإسلام ...

فقد روي أن عبدالملك بن مروان كان يطوف بالبيت العتيق ، وعلي بن الحسين يطوف أمامه غير ملتفت إليه ، أو لا يلتفت إليه. فقال عبد الملك من هذا الذي يطوف بين أيدينا؟ ولا يلتفت إلينا؟ فقيل له : إنّه علي بن الحسين.

فجلس عبدالملك مكانه غاضبا وقال : ردّوه إليَّ فردّوه ، فقال له : يا

علي بن الحسين ، إنّي لستُ قاتل أبيك! فما يمنعك من السير إلينا؟!

فأجابه عليه السلام : « **إنّ قاتل أبي أفسد . بما فعله . دنياه عليه ، وأفسد أبي عليه آخرته. فإن أحببت أن تكون هو فكن ..** » [1].

ويبدو من هذه السطور أن الإمام كان مقاطعاً عبدالملك ، أو أن مقاطعته ليست مجرّد عزلة أو مقاطعة عابرة ، وإنّما مقصودة ومتعمّدة ، وتعبّر عن موقف سياسي وإعراض متعمّد مع سبق الإصرار ، ولعلّها أظهر أشكال الجهاد السياسي واتخاذ الموقف السياسي في حدود المعروف أو المسموح به في ذلك العهد ...

كما أن قول عبدالملك : ( إني لست قاتل أبيك ) يتضمّن الغلظة ويوحي بالتهديد والتوّعد والإرهاب. فيما كان رد الإمام : « **إن أحببت أن تكون هو فكن** » يعبر عن تحدٍّ سافر لسلطة خليفة متجبّر لا يمنعه فعل أي شيء ، بما في ذلك القتل وسفك الدم ، وفي ذلك دليل قاطع على أن الإمام عليه السلام لم يكن في هذه المرحلة ذلك الوديع الموادع ، المنعزل عن الدنيا ، المشغول بالدعاء والعبادة ، البكّاء الحزين ، وإنّما المواجه ، المنازل ، الشديد ، القاطع ، المقاطع ، المتحدي ، العنيف الذي لا يخشى الإرهاب ولا يرهبه استخدام الطغاة عصاهم الغليظة ، أو تلويحهم بمراوات الإهانة أو التصفية أو الموت ...

وهكذا كان موقفه عليه السلام مع عبدالملك هذا في قصة سيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الموجود عنده ، والذي حاول عبدالملك استفزاز الإمام عليه السلام بطلب ذلك السيف أو استيهابه منه أو أخذه منه ، لما فيه من رمزية يمكن

---

(١) بحار الأنوار ٤٦ : ١٢٠. وإثبات الهداة / الحر العاملي ٣ : ١٥.

أن يوظّفها الحاكم الظالم إلى شرعيته المزيفة ، فأبى الإمام عليه السلام إعطاء السيف ، فكتب إليه عبدالملك يهدّه بأن يقطع رزقه من بيت المال ... فأجاب الإمام عليه السلام : « **أما بعد .. فإن الله تعالى ضمن للمتقين المخرج من حيث يكرهون ، والرزق من حيث لا يحتسبون ، وقال جلّ ذكره :** ( إن الله لا يحبُّ كل خوّن كفور ) ، ثم قال : **فأنظر أيّنا أولى بهذه الآية؟** » [1].

ويظهر من رفض الإمام إعطاء السيف ، وتوظيفه لهذه الآية الكريمة ، وقوله : ( أيّنا أولى بها )! واستصغاره لتهديد الخليفة بقطع رزقه من بيت المال واستهانته بطلبه ، أن القطيعة بالغ حدّها بين الطرفين ، وأن المواجهة في أقصاها ، وأن كلمة الحجاج الثقفي الذي كتب إلى عبدالملك ما نصه ( إنّ أردت أن يثبت ملكك ، فاقتل علي بن الحسين ) [2] ، إنّما تعبّر تعبيراً دقيقاً هي الأُخرى ، عن شدّة المواجهة وعمق الأزمة وخطورة الموقف.

كان هذا إذن موقف الإمام عليه السلام مع عبدالملك بن مروان أو بعض مواقفه ، وهكذا كان موقفه عليه السلام مع هشام بن عبدالملك ، في قضية الحجر الأسود المارّة الذكر ، وكيف أن الأمويين سجنوا الفرزدق على قصيدة شعرية اعتبروها إهانة لمقام الخلافة ، فيما سارع الإمام السجاد عليه السلام للاتصال بالفرزدق وهو في السجن ، ووصله بشيء رمزي من المال تعضيداً له على موقفه ، ومكافأة لموقفه الشجاع ذاك ، وتعبيراً عن مواساةٍ واضحة المقاصد والأهداف في العرف السياسي السائد ...

---

(١) أُنظر المناقب / ابن شهرآشوب ٤ : ٣٠٢. وبحار الأنوار ٤٦ : ٩٥. والآية من سورة الحج٢٢ / ٣٨.

(٢) بحار الأنوار ٤٦ : ٢٨.

### الموقف من أعوان الظلمة :

إن الطواغيت ليس بإمكانهم الوصول إلى مآربهم إذا لم يجدوا أعواناً لهم يعينونهم على ما يقومون به من مظالم ومآثم ... ولعلَّ من السذاجة بمكان إلقاء اللوم على عاتق شخص واحد توضع على مشجبه أو شماعته كل الجرائم والجنايات التي ترتكب بحق الأُمم والشعوب ، وإغضاء الطرف عن الدائرة المحيطة به ، الملتفة حوله ، بدءاً بولاته وقادته العسكريين ، مروراً بإعلامييه وأبواقه وفقهائه ووعاظ سلطته ، وانتهاءً بهذا المطرب أو ذاك الشاعر اللذين لا ينفكان ينشدان لنظامه الظالم ويروّجان له ويخففان جرائمه ويأخذان على أيدي من يحاول التعريض به أو الحديث عن جرائمه ...

ولعل الزيارة الشهيرة المعروفة بزيارة « عرفة » الخاصّة بالإمام الحسين عليه السلام التي جاء نصّها : « **... فلعن الله أمةً قتلتك ، ولعن الله أمةً ظلمتك ، ولعن الله أمةً سمعت بذلك فرضت به ..** » تعبر بشكل واضح وصريح عن هذه النقطة المهمة ، أي على ضرورة تحميل الأُمّة مسؤولية حرب الحسين عليه السلام ومناهضته وتكثير سواد خصومه.

هذا الخيط الرابط بين الطاغية وبين أعوانه ، استطاع الإمام السجاد عليه السلام تشخيصه بدقّة ، وتأكيده والطرق عليه ... أي إن موالاة الجائر تعتبر كبيرة من الكبائر لما تنطوي عليه من تمكين واضح له لدرس الحق وإحياء الباطل وإظهار الظلم والجور ، وإبطال الكتب ، وقتل الأنبياء والمؤمنين ، وهدم المساجد وتبديل السُنّة وتغيير شرائع الله وتعاليم دينه ..

فكانت الخطوة الثانية هي : تنبيه الأمّة على أن أي تعامل مع الحكام

وأية مساعدة لهم ، حتّى في أبسط الأمور وأدنى الأشياء يعتبر تقويةً لحكومتهم ، ومشاركةً لهم في جناياتهم لأنّ تقديم أيّ خدمةٍ لهم وإن كانت ضئيلة جدّاً يكون . بقدره . تمكيناً ومعاضدةً لهم ، فراح عليه السلام يؤكد على لعن ( من لاق لهم دواة ، أو قطّ لهم قلماً ، أو خاط لهم ثوباً ، أو ناولهم عصاً ) ، بل حرّم العمل معهم ومعونتهم والكسب معهم [1].

اعتمد الإمام السجاد عليه السلام هذه القاعدة الإسلامية ، وجعلها ركيزة مهمة في مقاومة النظام الفاسد ، وحاول تجريده من سلاح الوعّاظ المحيطين به ، أو عصابات المتزلّفين المتملقين الذين تمرّ السلطة الظالمة مشاريعها من خلال ملقهم وتزلّفهم وتلميعهم لاجراءات هذه السلطة لدى العوام والسذّج والبسطاء ...

وكان الإمام السجاد كثيرا ما يقول : « **العامل بالظلم والمعين له ، والراضي به شركاء ثلاثة** » [2].

وكان عليه السلام يحذّر الناس من التورّط في أعمال الظلمة ، ولو بتكثير سوادهم والتواجد في مجالسهم ومصاحبتهم ، لأنّ الظالم لايريد من الصالح فعلاً الاستفادة من صلاحه أو الاقتداء به ، وإنّما يحاول توريطه في جرائمه وآثامه أو توظيفه لتحقيق مفاسده ومشاريعه .. فكان عليه السلام يقول « **... ولا يقول رجل في رجل من الخير مالا يعلم ، إلاّ أوشك أن يقول فيه من الشرّ مالا يعلم ، ولا اصطحب اثنان على غير طاعة الله إلاّ أوشك أن يتفرّقا على**

---

(١) تحف العقول : ٣٣٢.

(٢) راجع : بلاغة علي بن الحسين عن الاثني عشرية / العاملي : ٢٢٤.

**غير طاعة الله ... »** [1].

قد يتصوّر بعض الناس من ذوي المكانة في المجتمع أنّ اصطحاب أولئك الحكّام الظالمين لا يضرّ شيئاً ، وإنّما يفيد خدمة أو تقديم خدمة للطرفين : للظالم بتخفيف ظلمه والحد من سُعاره ، ولأعوان الصالح وأصحابه ليكفيهم شرّه ويدفع عنهم وعن إخوانهم ضرره ، وما دروا ، أو غاب عنهم ، خبث الظالم باستغلال صلاحهم وأسمائهم وسمعتهم في تنفيذ ما لا يرضي الله ، وتمريره على البسطاء من الناس والتغرير بهم ... وربما راحوا يستعملون كلمات الملاطفة والتبجيل المقنّع لهذا الظالم أو ذاك ، متوهّمين أن في بعض ذلك تصحيحاً لتصرفاته وتقليص هوسه ، متناسين براءة الناس وانخداعهم به عبر إسباغ الشرعية على أفعاله من قبل هؤلاء وذلك بالتقرّب إليه أو القرب منه ، وما يجرّ ذلك من ارتجاج قيم ونسف مقاييس واهتزاز ثوابت ومعايير.

ولعل أكثر مواقف الإمام عليه السلام وضوحا في مساعيه لسلخ الوعّاظ عن حاشية الحاكم الظالم هو موقفه عليه السلام من الزهري الذي أكسبه الأمويون شهرة عظيمة ، وروّجوا له كثيراً ، حيث شدّ هو والعلماء الصالحون النكير عليه لقربه من بني أمية والسكوت عن جرائمهم وشنائعهم ، ففيما كان هو يبرّر صحبته لهم بقوله : ( أنا شريك في خيرهم دون شرهم ). كان العلماء يردّن عليه بقولهم : ( ألا ترى ماهم فيه فتسكت؟! ) [2]. فيسكت ولا يحير جوابا.

---

(١) تاريخ دمشق ( الحديث ١٢٨ ) ومختصره لابن منظور ١٧ : ٢٤.

(٢) لاحظ وفيات الأعيان / ابن خلّكان ٣ : ٣٧١.

ومن حوارات الإمام الساخنة مع بعض أعوان الظلمة ردّه على الزهري هذا الذي قال للإمام يوما : ( كان معاوية يُسكته الحلم ، ويُنطقه العلم )!! فقال الإمام : « **كذبت يا زهري ، كان يُسكته الحصر ، وينطقه البطَر** » [1].

وأكثر من ذلك تقريعه الزهري وعروة بن الزبير وهما جالسان في مسجد المدينة ينالان من الإمام علي عليه السلام ، فبلغه ذلك ، فجاء حتى وقف عليهما ، فقال : « **أما أنت يا عروة فإن أبي حاكم أباك الى الله ، فحكم لأبي على أبيك! وأما أنت يا زهري فلو كنت بمكة لا يَتك كِير أبيك** » [2].

ولنا مع الزهري هذا وموقف الإمام منه ، الجولة الأخيرة في هذا البحث الموجز المقتضب .. فإلى حين يأتي هذا المشوار ، وما أخفاه أو يخفيه في سطوره وكلماته ودقّة معانيه وعباراته ... نقف عند كلمات الإمام السجاد عليه السلام التي يوجهها من محرابه دروساً يستنير بها المظلومون ، وسهاماً في نحور الظالمين.

« **اللهم إن الظَلَمة جحدوا آياتك ، وكفروا بكتابك ، وكذّبوا رسلك واستنكفوا عن عبادتك ، ورغبوا عن ملّة خليلك ، وبدّلوا ما جاء به رسولك ، وشرّعوا غير دينك ، واقتدوا بغير هداك ، واستنّوا بغير سنّتك ، وتعدّوا حدودك ، وتعاونوا على إطفاء نورك ، وصدّوا عن سبيلك ، وكفروا نعماءك ، ولم يذكروا آلاءك ، وأمنوا مكرك ، وقست قلوبهم عن ذكرك ، واجترأوا على معصيتك ، ولم يخافوا مقتك ، ولم يحذروا بأسك واغترّوا بنعمتك ...** ».

ويواصل عليه السلام بيانه السياسي العبادي الغاضب هذا ، مستنهضاً متمرداً

---

(١) الاعتصام ٢ : ٢٥٧. ونزهة الناظر : ٤٣.

(٢) شرح نهج البلاغة ٤ : ١٠٢.

ثائرا ليقول :

« **اللهمّ إنّهم اتخذوا دينك دغلاً ، ومالك دولاً ، وعبادك خولاً ... اللهم افتِت أعضادهم واقهر جبابرتهم ، واجعل الدائرة عليهم ، وأقضض بنيانهم ، وخالف بين كلمتهم ، وفرّق جمعهم ، وشتّت شملهم ، واجعل بأسهم بينهم ، وابعث عليهم عذاباً من فوقهم ، ومن تحت أرجلهم ، واسفك بأيدي المؤمنين دماءهم ، وأورث المؤمنين أرضهم وديارهم وأموالهم ... ».**

إلى أن يقول عليه السلام شارحاً ، موضّحاً ، مفصّلاً :

« **اللهمّ إنّهم اشتروا بآياتك ثمناً قليلاً ، وعتوا عتوّاً كبيراً ... اللهم إنّهم أضاعوا الصلوات واتّبعوا الشهوات .. اللهمّ ضلّل أعمالهم ، واقطع رجاءهم ، واذْحَضْ حجتهم ، واستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وآتهم بالعذاب من حيث لا يشعرون ، وأنزل بساحتهم ما يحذرون ، وحاسبهم حساباً شديداً ، وعذّبهم عذاباً نكراً ، واجعل عاقبة أمرهم خُسراً ... »** [1].

وهكذا ، في كلِّ كلمة ثورة ، وفي كلِّ عبارة لوحة ، وفي كلِّ جملة بيان وإيضاح للثوار والأحرار والشرفاء.

وليس كما تقول تلك الكاتبة الجامعية التي أكّدت : « أن الشيعة بمصرع الحسين افتقدت الزعيم الذي يكون محورا لجماعتهم وتنظيمهم والذي يقودهم إلى تحقيق تعاليمهم ومبادئهم ، وانصرف الإمام علي زين العابدين عن السياسة إلى الدين وعبادة الله عزَّ وجل وأصبح للشيعة زعيما روحيا ولكنه لم يكن الثائر السياسي الذي يتزعم جماعة الشيعة .. »

---

(١) الاقبال / السيد بن طاووس : ٤٥. والصحيفة الخامسة السجادية : ٤٠٥.

إلى أن تقول : « وحاول المختار بن أبي عبيدة الثقفي أن ينتزع عليا من حياة التعبّد والاشتغال بالعلم إلى ميادين السياسة دون جدوى ... » [١].

### كتاب الإمام السجاد عليه السلام إلى الزهري :

حين أوغل الزهري في دائرة الحكم الأموي الغاشم ، والتحق ببلاط السلطة بالكامل ، وحين لم يبق أمام الإمام بدّ من كشف الزيف في هذه المواقف ونفاقيتها ونفعيتها ، ورغم ماقد يكلفه هذا الكشف من ضريبة ربما تكون باهضة .. إلا أن الإمام كتب إلى الزهري كتاباً ضمّنه أدّق الخيوط سياسةً وعمقاً ، ورواه العامة والخاصة ، ونقله العديد من المؤرخين وكتّاب السير بفروق بسيطة.

قال الغزالي ما نصه : ( إن هذه الرسالة كُتبت إلى الزهري لما خالط السلطان ) [٢] ، كما رواها ابن شعبة [٣] وآخرون .. وفيما يلي بعض نصوص هذه الوثيقة السياسية السجادية التاريخية الدقيقة ، نتركها بلا تعليق أولاً ، ثم نتبعها بشيء من التعليق فيما بعد :

« **... أما بعد .. كفانا الله وإياك من الفتن ، ورحمك من النار ، فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك بها أن يرحمك ، فقد أثقلتك نعم الله بما أصحَّ من بدنك ، وأطال من عمرك ، وقامت عليك حججه الله بما حمّلك من كتابه ، وفقّهك من دينه ، وعرّفك من سُنّة نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فرضي لك في**

---

(١) د. سميرة الليثي / جهاد الشيعة : ٢٩.

(٢) إحياء علوم الدين / الغزالي ٢ : ١٤٣. والمحجة البيضاء في إحياء الأحياء ٣ : ٢٦٠.

(٣) تحف العقول : ٢٧٤. والمحجة البيضاء ٣ : ٢٦٠.

كلّ نعمة أنعم بها عليك ، وفي كلّ حجّة احتج بها عليك ..

فانظر أي رجل تكون غدا إذا وقفت بين يدي الله! فسألك عن نعمه عليك ، كيف رعيتها؟ وعن حججه عليك ، كيف قضيتها؟!

ولا تحسبنَّ الله قابلاً منك بالتعذير ، ولا راضياً منك بالتقصير! هيهات .. هيهات! ليس كذلك إنّه أخذ على العلماء في كتابه إذ قال : ( لتبيننه للناس ولا تكتمونه ) [1].

واعلم أن أدنى ما كتمت ، وأخفّ ما احتملت أن آنست وحشة الظالم ، وسهلت له طريق الغيّ بدنوّك منه حين دنوت ، وإجابتك له حين دُعيت.

فما أخوفني أن تبوء بإثمك غدا مع الخونة ، وأن تُسأل عما أخذتَ بإعانتك على ظلم الظلمة! إنّك أخذتَ ماليس لك ممن أعطاك ، ودنوت ممن لم يردّ على أحد حقاً ، ولم تردّ باطلاً حين أدناك ، وأحببت من حادّ الله ... ».

ثم يتساءل الإمام السجاد عليه السلام مستنكرا مستفهما دقيقا حين يقول « أوليس بدعائهم إياك حين دعوك جعلوك قطباً أداروا بك رحى مظالمهم ، وجسراً يعبرون عليك إلى بلاياهم ، وسلّماً إلى ضلالتهم .. » لاحظ ... ويواصل عليه السلام رسالته هذه قائلا : « داعياً إلى غيّهم ، سالكاً سبيلهم ، يدخلون بك الشك على العلماء ، ويقتادون بك قلوب الجهال إليهم ..

فما أقلّ ما أعطوك في قدر ما أخذوا منك ، وما أيسر ما عمّروا لك! فكيف ماخرّبوا عليك ، فانظر لنفسك ، فإنّه لا ينظر إليها غيرك وحاسبها

---

(١) سورة آل عمران : ٣ / ١٨٧.

حساب رجل مسؤول ... انظر كيف شكرك لمن غذاك بنعمه صغيرا وكبيراً

فما أخوفني أن تكون كما قال الله في كتابه : ( فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ، يأخذون عرض هذا الأ َنى ويقولون سيغفر لنا ) [1]!

بعدها يروح الإمام السجاد عليه السلام يحذّره الله والآخرة ، ويذكّره بما ينبغي أن يتذّكره ، أو يذكّر به فيقول : « إنّك لست في دار مقام ، أنت في دار قد آذنت برحيل ... طوبى لمن كان في الدنيا على وجل ، يا بؤس من يموت وتبقى ذنوبه من بعده. إحذر فقد نُبئت ، وبادر فقد أُجّلت. إنّك تُعامل من لايجهل ، وإن الذي يحفظ عليك لا يغفل. تجهّز فقد دنا منك سفر بعيد ، وداو دينك فقد دخله سقم شديد ...

ولا تحسب أني أردتُ توبيخك وتعنيفك وتعييرك ، لكني أردت أن يُنعش الله ما فات من رأيك ، ويردّ إليك ما عزب من دينك ، وذكرت قول الله تعالى : ( وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ) .

أغفلت ذكر من مضى من أسنانك وأقرانك ، وبقيت بعدهم كقرن أعضب .. أُنظر : هل إبتلوا بمثل ما ابتُليت به؟ أم هل وقعوا في مثل ما وقعت فيه؟ أم هل تراهم ذكرت خيرا أهملوه؟ وعلمت شيئا جهلوه؟

بل حظيت بما حلَّ من حالك في صدور العامّة ، وكلفهم بك ، إذ صاروا يقتدون برأيك ، ويعملون بأمرك ، إن أحللت أحلّوا ، وإن حرّمت حرّموا ، وليس ذلك عندك ، ولكن أظهرهم عليك رغبتهم فيما لديك ذهاب علمائهم ، وغلبة الجهل عليك وعليهم ، وحبّ الرئاسة ، وطلب الدنيا منك

---

(١) سورة آل عمران : ٣ / ١٦٨.

ومنهم.

أما ترى ما أنت فيه من الجهل والغرّ؟ وما الناس فيه من البلاء والفتنة؟! قد ابتليتهم ، وفتنتهم بالشغل عن مكاسبهم مما رأوا ، فتاقت نفوسهم إلى أن يبلغوا من العلم ما بلغت ، أو يدركوا به مثل الذي أدركت ، فوقعوا منك في بحر لا يُدرك عمقه وفي بلاء لا يقدر قدره ، فالله لنا ولك ، وهو المستعان ... ».

بعد ذلك يروح الإمام السجاد محذّراً منذراً ، مذكّراً منبّهاً ، ينتقل من الدنيا إلى الآخرة ومن الأرض إلى السماء ، ومن الغيب إلى الواقع ومن الواقع إلى الغيب ، لا تفوته إشارة إلاّ لمّح لها ولا يترك فراغاً إلاّ ملأه ، فيقول : « أما بعد ... فأعرض عن كل ما أنت فيه حتى تلتحق بالصالحين الذين دُفنوا في أسمالهم ، لاصقةً بطونهم بظهورهم ، ليس بينهم وبين الله حجاب ، ولا تفتنهم الدنيا ولا يُفتنون بها.

فإن كانت الدنيا تبلغ من مثلك هذا المبلغ ، مع كبر سنّك ورسوخ علمك ، وحضور أجلك ، فكيف يسلم الحدث في سنّه؟ الجاهل في علمه؟ المأفون في رأيه؟ المدخول في عقله؟! ... على من المعوّ ؟ وعند من المستعتب؟ نشكو إلى الله بثّنا ، وما نرى فيك! ونحتسب عند الله مصيبتنا بك ...

فأنظر : كيف شكرك لمن غذاك بنعمه صغيرا وكبيرا ..! وكيف إعظامك لمن جعلك بدينه في الناس جميلا! وكيف صيانتك لكسوة من جعلك بكسوته في الناس ستيرا!! وكيف قربك أو بعدك ممن أمرك ان تكون منه قريبا ذليلا!!

مالك لا تنتبه من نعستك؟ وتستقيل من عثرتك؟ فتقول : والله ما قمت لله

**مقاما واحدا أحييت به له دينا! أو أمّت له فيه باطلا!! أفهذا شكرك من استحملك؟! ما أخوفني أن تكون كما قال الله تعالى في كتابه :** ( أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيّا ) [1] **استحملك كتابه ، واستودعك علمه ، فأضعتهما! فنحمد الله الذي عافانا مما ابتلاك به! والسلام ...** [2].

وهكذا يتّضح من سطور هذه الرسالة وحروفها وكلماتها ، أنّ الإمام السجاد عليه السلام دخل في مواجهة مكشوفة مع السلطة الحاكمة ، عبر تنديده العلني هذا بأحد رموزها ، المقربين من بلاطها ، أي عبر تحذيره وإنذاره وتوبيخه وتأنيبه له : « **مالك لا تنتبه من نعستك؟ ولا تستقيل من عثرتك؟** » ... « **أما ترى ما أنت فيه من الجهل والغرّ؟ وما الناس فيه من البلاء والفتنة؟** ».

إذن ، وبايجاز جليّ وواضح ، وكلمات ساطعة صادحة ، كشف الإمام ، من خلال هذه الرسالة ، كل الخيوط المخفية التي يتستر بها وعّاظ السلاطين عادة ، للتعتيم على نفعيتهم ووصوليتهم ولصوصيتهم [3].

---

(١) سورة مريم : ١٩ / ٥٩.

(٢) وردت الرسالة في تحف العقول : ٢٧٤ ـ ٢٧٧. ورواها الحائري في بلاغة علي بن الحسين عليه السلام : ١٢٢ ـ ١٢٦. ورواها المقرّم في الإمام زين العابدين : ١٥٤ ـ ١٥٩. ورواها الغزالي في إحياء علوم الدين ٢ : ١٤٣.

(٣) جاء في كتاب « الكشكول » المعروف لبهاء الدين العاملي ما نصه : ( إذا رأيت العالم يلازم السلطان فاعلم أنه لص. وإياك أن تُخدع بما يقال إنّه يردّ مظلمة أو يدافع عن مظلوم ، فان هذه خدعة ابليس اتخذها فخّاً والعلماء سلّما ) راجع كتاب الفقيه والسلطان / د. وجيه كوثراني : ١٥٥.

« **لقد سهّلت له طريق الغيّ بدنوّك منه ، وأنك سوف تُسأل عمّا أخذت بإعانتك على ظلم الظلمة .. » الذين « جعلوك قطبا أداروا بك رحى مظالمهم ، وجسراً يعبرون عليك إلى بلاياهم وسلّماً إلى ضلالتهم »!** وغير ذلك مما يعد وثيقة سياسية دقيقة جدا ومعبّر جدا لكلّ من يحاول تبرير قربه من الظلمة أو إدعائه إصلاحهم بوعظه وإرشاده ونصائحه ...

ولعل الموقف من أعوان الظلمة هذا هو أدق الخيوط في نسيج التعامل السياسي الذي ينبغي غزله أو السير فيه بدّقة وحذر متناهيين ...

ولذلك نرى الإمام يدعو لأهل الثغور في دعائه المعروف « دعاء الثغور » تارة ، قبال عدوّ مشترك تنكمش لتحدّيه الجزئيات أمام الكليات ، فيما نراه يندّد بحكام الثغور وأعوانهم وظلمهم وتعسفهم تارة أُخرى في الدائرة الأضيق ، أو ما يُسمى في المصطلح الحديث « النقد داخل البيت » وبهذا الاسلوب المندد المقرع : « **والله ما قمت له مقاما واحدا أحييت به له ديناً ، أو أمتّ له فيه باطلاً »!**

فمن هذه المداخلات ، إذن ، ومن هذه الخيوط الدقيقة تجب دراسة الإمام السجاد وقراءة مواقفه قبل الحكم له أو عليه عليه السلام . ومن هذه القراءة يمكن أن تُفهم منطلقات الإمام وأهدافه في سكوته أو كلامه ، وفي عزلته أو تصديه وفي صمته أو ثورته ، لاسيّما وهو القائل في ردّه على من يقول ( إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب ) .. « **لكلّ واحد منهما آفات ، وإذا سلما من الآفات فالكلام أفضل من السكوت** » وأضاف : « **لا والله عزَّ وجلّ ، ما بعث الأنبياء ، والأوصياء بالسكوت ، وإنما بعثهم بالكلام ، ولا استُحقت الجنة بالسكوت .. ولا استُوجبت ولاية الله بالسكوت ، ولا توقيت النار بالسكوت! ».**

وأكثر من ذلك : « **إنّك تصف فضل السكوت بالكلام ، ولست تصف فضل الكلام بالسكوت ..** » [1] وتلك هي الحكمة البالغة والبيان البليغ ..

فسلام على الإمام السجاد ساكتاً ومتكلماً ، وسلام عليه معتزلاً ومتصدياً ، وسلام عليه داعيا لأهل الثغور ومنددا بظلمهم وجورهم وتعسفهم ، وسلام عليه مصفحاً متغافلاً عن عبد من عبيدالله سبَّه وشتمه ، ومعنّفاً مقرّعاً لواعظ من وعّاظ السلاطين جعل من نفسه جسراً لبلايا سلاطينه ، وسلّماً لضلالهم وغواياتهم ...

---

(١) الإحتجاج / الطبرسي : ٣١٥.

## المحتويات


مقدِّمة المركز ..... ٥

**المقدِّمة ..... ٧**

**الفصل الأول ..... ١١**

**الإمام السجاد عليه السلام في سطور ..... ١١**

الشخصية : ..... ١١

المحطات الرئيسية في حياة الإمام السجاد عليه السلام : ..... ١٥

المحطة الأُولى : في كربلاء : ..... ١٦

المحطة الثانية : في الكوفة والشام : ..... ١٩

المحطة الثالثة : في المدينة المنوّرة : ..... ٢٤

١ ـ دوره العلمي. ..... ٢٤

٢ ـ دوره في بلورة المعارضة السياسية. ..... ٢٩

المرحلة المنعطف : ..... ٣٢

القتال على جبهات متعددة : ..... ٣٤

الحصيلة : ..... ٣٧

**الفصل الثاني ..... ٤١**

**ظاهرة البكاء عند الإمام زين العابدين عليه السلام ..... ٤١**

بين البكاء والتباكي : ..... ٤١

تفسير ظاهرة البكاء عند الإمام عليه السلام : ..... ٤٢

المواجهة أو الصبر : ..... ٤٤

ماذا حقق البكاء؟ ..... ٤٥

**الفصل الثالث ..... ٥١**

**ظاهرتا العبادة والدعاء عند الامام عليه السلام ..... ٥١**

التفسير المبتور للظاهرتين : ..... ٥١

طريقان لا ثالث لهما : ..... ٥٣

الهدف الحقيقي :.....٥٣
مضامين دعائه عليه السلام :.....٥٨
١ . المضامين العقائدية : .....٦٢
٢ . المضامين الأَخلاقية :.....٦٤
٣ . المضمون العبادي : .....٦٧
**الفصل الرابع ..... ٧٣**
**فلسفة الإمام عليه السلام في الانفاق وتحرير العبيد ..... ٧٣**
هدف الإِمام عليه السلام من التعامل مع الظاهرة : .....٧٤
التربية العالية والخلق الرفيع : .....٧٥
سياسة الإِنفاق :.....٨٠
**الفصل الخامس..... ٨٥**
**رسالة الحقوق ..... ٨٥**
رسالة الحقوق .. محاكمة المفاهيم بالمصاديق .....٨٥
مع رسالة الحقوق :.....٨٨
حقوق الرعية والراعي :.....٩٠
حقوق الرحم :.....٩١
حق الأُم :.....٩٢
حق الأَب :.....٩٢
حق الولد :.....٩٣
حق الأَخ :.....٩٣
حق الغريم : .....٩٥
حق الخصم :.....٩٥
حقوق أُخرى :.....٩٦
كلمة أُخرى في رسالة الإِمام عليه السلام :.....٩٧

**الفصل السادس..... ١٠٣**
**خلاصة الجهاد السياسي عند الإمام السجاد عليه السلام ..... ١٠٣**
خيمة خارج المدينة : ..... ١٠٥
الموقف من الحركات الثورية :..... ١٠٧
الموقف من الظالمين : ..... ١١٠
موقفه من عبدالملك وهشام : ..... ١١٠
الموقف من أعوان الظلمة : ..... ١١٣
كتاب الإمام السجاد عليه السلام إلى الزهري : ..... ١١٨
**المحتويات ..... ١٢٥**